

مطبوع للطلبة

مادة الغرب الإسلامي  
المغرب في القرون الأربعة الأولى

الأستاذ الدكتور محمد حقي

## التمهيد

### المغرب عشية الفتح الإسلامي

عندما وصل الفاتحون الأوائل إلى المغرب وجدوا أمامهم بلادا شاسعة متنوعة التضاريس والمناخ ومختلفة الطبيعة عما ألفوه في بلادهم أو البلاد التي سبق لهم فتحها، والتقوا بساكنة متنوعة يهيمن عليها العنصر البربري بلغته التي لا يعرفونها، ووجدوا ديانات مختلفة يغلب عليها الطابع الوثني، أما سياسيا فقد وجدوا بلادا شبه مستقلة عن الدول الكبرى ومنقسمة بشكل شديد مما سيصعب التحكم فيها.

#### 1- أرض المغرب:

إن الحديث عن المغرب في فترة الفتح يطرح مشكل تحديد مجاله بشكل دقيق، فالمصادر العربية تورد تحديدات تختلف حسب الفترات الزمنية ويتحكم فيها التحديد الجغرافي (جهة الغرب)، وأهم ما ميزها هو حركية وتغير الحدود الشرقية بالخصوص. فقد كانت في البداية تشمل كل أراضي شمال إفريقيا بما فيها مصر (البيان المغرب ج1، ص5)، وبعد فتحها بدأ الحديث عن الأراضي الواقعة غرب النيل من ناحية الإسكندرية (البيان المغرب ج1، ص5)، بل أكثر من هذا ففي عهد هارون الرشيد كان المغرب يطلق على كل الأراضي الواقعة غرب نهر دجلة (مناسبة تقسيم الإمبراطورية بين ابنه الأمين والمأمون). وبالرغم من هذا الاختلاف فقد كان التحديد الثاني الأكثر تداولاً واستعمالاً وهو الذي سنأخذ به.

وينقسم المغرب إلى أربع وحدات: أرض برقة وطرابلس وإفريقية (المغرب الأدنى) وبلاد الزاب (المغرب الأوسط) ثم المغرب الأقصى (بلاد السوس الأقصى والأدنى). وسيتطور تعاملنا مع هذا المجال تبعا لمحاور البرنامج إذ سنتناوله في البداية كاملا ثم يبدأ في التقلص ليقصر في الأخير على المغرب الأقصى.

ينقسم المغرب طبيعيا إلى قسمين: مجال شمالي ضيق يغطي حوالي العشر من البلاد، ومجال جنوبي شاسع.

فالمجال الأول يمتد من سواحل إفريقية الشرقية إلى المحيط الأطلسي ليغطي ما يعرف بالمجال الريفي- الأطلسي، وهو حديث التكوين (الزمن الجيولوجي الثالث) يغلب عليه طابع الارتفاع إذ يتجاوز معدل الارتفاع 2000م ويتناقص الارتفاع تدريجيا في اتجاه الشرق والجنوب. ويضم جبال الريف والتل ودرن والهضاب العليا في الجائر والسهوب التونسية

والهضاب الأطلنتية في المغرب وأشرطة سهلية على سواحل البحر المتوسط وسهولا واسعة في الواجهة الأطلنتية. وتخرقه أودية كبيرة وعميقة تساهم في تقطعه وعزلة بعض مناطقه. ويسود به مناخ متوسطي يختص بالرطوبة والموسمية والتقلب، شتاؤه بارد ومطير وصيفه جاف حار وقاس، ويعرف فترات جفاف دورية تخلف الاضطراب وعدم الاستقرار. ويوفر غابات ومراعي جيدة في الجبال والسهول.

أما المجال الثاني فهو شاسع جدا ويختص بقدوم تضاريسه وبنيته (الزمن الأول)، ويغلب عليه طابع الانبساط بسيادة الحمادات والمنخفضات الصحراوية دون أن يخلو من بعض المرتفعات مثل الهكار وتبلسي. ومناخه صحراوي جاف، وتندر به عناصر الحياة من ماء ونبات مما يجعل الاستقرار به صعبا جدا باستثناء الواحات.

يساهم تنوع المؤهلات الطبيعية في انتشار أنماط اقتصادية واجتماعية في المغرب. ففي الوقت الذي نجد زراعة مستقرة في السواحل الشمالية والشرقية وبعض الأودية في الجبال والواحات، تمتد على مجالات واسعة حياة ترحال وتنقل موسمية وراء القطعان بحيث ينتقل الرعاة صيفا وشتاء بين الجبال والسهول المجاورة أو بين المناطق الداخلية والسواحل المتوسطة أو بين هوامش الصحراء الشمالية ووسطها. وتوفر هذه الأنماط موارد متنوعة للسكان كما تسمح لهم بسرعة التحرك والمناورة.

طبيعة متنوعة فرضت تنوع أنماط العيش في المنطقة.

## 2- السكان

يعتقد كل من يقرأ المصادر أن سكان المنطقة متنوعون، لكن الحقيقة هي أن الأغلبية الساحقة منهم تتكون من البربر. وي طرح تاريخ هذه المجموعة إشكاليات متنوعة.

أولا التسمية: نجهل كل شيء عن أصل التسمية مع أن هناك احتمالان: أصل إغريقي روماني ذلك أن الإغريق يطلقون هذا الاسم على كل من لا ينتمي إلى حضارتهم مع ملاحظة أن كل الشعوب تخلصت منها ولم تلتصق بها، فلماذا يشكل البربر الاستثناء؟ وأصل عربي نابع من مفهوم لغوي أو جنيا لوجي (بربر: تكلم لغة غير مفهومة // أبناء بر بن كنعان).

ثانيا الأصل: لم يعرف شعب نقاشا حادا حول أصله كما عرفه البربر حتى إن باحثا قال إنه سهل معرفة المناطق التي لم يأت منها البربر أكثر من تلك التي أتوا منها. فقد جاؤوا من اليمن وفلسطين والهند وأوربا وجزر الكناري وإفريقيا جنوب الصحراء. وما يجمع بين هذه الآراء هو محاولتها إثبات أصل خارج عن المنطقة، ويمكن القبول به جزئيا على اعتبار أن المنطقة؛ بفعل موقعها الاستراتيجي، تلقت هجرات من كل جيرانها. لكن يجب إضافة

احتمال وجود عنصر محلي قديم تطور بالمنطقة كما تؤكد الاكتشافات الأثرية (إنسان دار السلطان- الإنسان العتيري والمستيري)، واستحضار التأويلات المعقدة وغير المنطقية أحيانا والدافع الإيديولوجي الذي حكم هذه الآراء رغبة في كسب ود البربر سواء من قبل العرب المسلمين أو الفرنسيين المحتملين.

ثالثا التقسيم: يصنف البربر حسب نمط العيش أو الانتماء العرقي.

يتميز التصنيف الأول بين البتر والبرانس. فالأوائل أساسا رحل وأغلبهم من زناتة. والآخرين من المستقرين وهم أساسا من المصامدة وصنهاجة وبعض زناتة. ويحتوي هذا التقسيم عيوبا كثيرة وهو مبهم ويصعب الأخذ به.

أما الثاني فيقسم البربر إلى ثلاث اتحاديات:

- زناتة: نفزة- لواتة- ولهاصة- مطغرة- بنو يفرن- مكناسة... ومواطنها في برقة وطرابلس والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى (من ممر تازة حتى المحيط الأطلسي والأطلس المتوسط).
- صنهاجة: كتامة- لمتونة- مسوفة- جدالة- لمطة ... ومواطنها بشرق المغرب الأوسط (القبائل) وغرب إفريقية والأطلس المتوسط ودرن الأوسط الجنوبي والصحراء.
- مصمودة: تستقر أساسا في المغرب الأقصى في درن والسهول والهضاب الأطلنتية وسوس وبعض الجزر في الريف (غمارة)، ومن قبائلها هنتاتة وغمارة وجنفيصة وهسكورة وكندافة وغمارة...

وتنقسم كل اتحادية إلى مجموعة من القبائل وكل قبيلة إلى عشائر وعظام وكل عظم إلى أسر ممتدة. وتعتقد كل مجموعة أنها تنتمي إلى جد واحد حقيقي أو وهمي، لكن الدراسات الحديثة أثبتت أن التساكن يعتبر العنصر الأساس في نمو الشعور بالانتماء الواحد لدى معظم القبائل. وتتحدد علاقاتها وفق نظام الأحلاف.

وتسير القبيلة من طرف مجلس أعيان يرأسه شيخ ويساعده رؤساء العظام. وتتخذ القرارات بالتوافق والتراضي الجماعي. ويتدخل المجلس في كل القضايا اليومية للسكان.

ويتميز نظام الزواج بطابعه الداخلي عند معظم القبائل مع صعوبة التأكيد على حق الزواج بابنة العم الشقيق للأب كما هو معروف عند العرب. وقد سجل عند برغواطة منعها للزواج بابنة العم إلا بعد مرور ثلاثة أجداد.

نظام قبلي شبيه بمثيله عند العرب مما يسهل التداخل بين النظامين فيما بعد.

### 3- الديانة

سادت المغرب ديانات مختلفة منها ديانتان سماويتان؛ هما اليهودية والمسيحية، وديانة إحيائية وثنية مهيمنة.

فيما يخص اليهودية فمعلوماتنا عنها ضعيفة جدا، بحيث نجهل حجمها في المنطقة فلا نستطيع تأكيد أكثر من كونها وجدت في بعض المراكز الحضرية مثل وليلي وشمال الأطلس المتوسط ووسط الأطلس الكبير وبعض الواحات. ويرجح أن أول وصول لليهود إلى المنطقة كان مع أولى هجرات الفنيقيين إلى المنطقة، بينما ستصل أعداد كبيرة منهم بعد الجلاء الكبير لليهود من فلسطين على يد الإمبراطور الروماني عام 131م. وبعد استقرارهم في المنطقة استقطبوا سكانا من البربر إلى ديانتهم مما زاد من أعدادهم.

أما المسيحية فقد وصلت إلى المنطقة إما من مصر أو أوروبا مع ترجيح الأولى منذ السنين الأولى للمسيحية. وكانت إفريقية من الأسقفيات التي وصل عدد المسيحيين بها إلى حوالي الثلث متقدمة على أوروبا خلال القرن 3م، حيث قام القديس سيريان بتنظيم الكنيسة الإفريقية، لكنها اضطهدت على يد الإمبراطور دسيوس وأغلقت الكنائس. وبعد تحالف المسيحية والإمبراطورية الرومانية منذ بداية القرن الرابع الميلادي توسع انتشار المسيحية بالرغم من اقتصار أتباعها على الروم ومواليهم من البربر. وخلال هذا القرن انشقت الكنيسة وظهر المذهب الدوناتى المساند للفقراء والعبيد فقمع أتباعه وقتل زعيمه سنة 355م وهيمنت الكاثوليكية. لكن وصول الوندال عام 435م إلى قرطاج جلب المذهب الأريوسي، فدخلت البلاد في صراع مذهبي مرير ولم يستطع البيزنطيون بعد مجيئهم إعادة الهدوء، فبدت الكنيسة ضعيفة ومنشقة وقل نفوذها، بل إن كثيرا من أتباعها غادروا مع البيزنطيين وأسلم آخرون خاصة من الأفارقة وبقيت قلة بعد دخول الإسلام.

تبقى الوثنية الإحيائية دين الأغلبية من البربر وتقوم على إعطاء روح لكل المخلوقات والأشياء (حيوان- نبات- جماد)؛ مما يجعلها تسمع وترى وتحسن وتسيء، وتقديس ظواهر الطبيعة المتنوعة، والممارسات السحرية الواسعة. وبالرغم من وجود بعض الآثار عن عبادة بعض الآلهة (الإله حامون= إله الخروف) في القرن 5هـ/11م في الأطلس، فإن مصادرنا خاصة الإسلامية لا تتحدث عن آلهة كانت معبودة من قبل البربر عند الفتح (يمكن التفصيل عند ألفرد بل في المرجع المذكور أعلاه).

ديانة إحيائية مهيمنة ومسيحية محدودة الانتشار ويهودية مجهولة.

#### 4- الوضع السياسي

بعد قرن من الوجود الوندالي في المنطقة، عاد الحكم الروماني عام 534م في شخص الإمبراطورية البيزنطية التي اتخذت قرطاج عاصمة لها. إلا أن نفوذها لم يتجاوز شريطا ساحليا ضيقا شمال إفريقية والمغرب الأوسط بينما اقتصر وجودها في المغرب الأقصى على منطقتين محدودتين هما: طنجة وسبتة. وكانت هذه الأراضي تعيش مشاكل عديدة نتيجة صراعات الولاة وخلافاتهم مع الأباطرة واشتداد الاستغلال الاقتصادي للسكان خاصة ملاكي الأراضي الذين تمردوا وبحثوا عن وسيلة للتخلص من التبعية لبيزنطة. ونجح أحد الولاة يسمى جريجوريوس بن نيقثاس بدعم من الكنيسة من السيطرة على السلطة والاستقلال بالبلاد وإعلان نفسه إمبراطورا عام 645م.

أما باقي المناطق فقد كانت تعيش تحت حكم النظام القبلي حيث كانت كل قبيلة تدبر شؤونها بالاعتماد على مؤسساتها، وربما نجحت هذه القبائل في خلق اتحادية خاصة في المغرب الأوسط والأوراس وجد العرب المسلمون على رأسها كسيلة بن لمزم الأوربي ثم خلفته بعد موته الكاهنة داهيا زعيمة جراوة.

حكم بيزنطي ضعيف ومنقسم على نفسه واستقلال القبائل بشؤونها، مما يعني تعدد الخصوم والأعداء أمام الفاتحين بالرغم من ضعفهم.

#### خاتمة

أرض متنوعة التضاريس وصعبة الاختراق ومتنوعة الموارد وساكنة بربرية قبلية غيرة على استقلالها ومستعدة للدفاع عن أرضها معتمدة سرعة تحركها وصعوبة بلادها ومعرفتها بها ونظام حكم متفرق وضعيف. هكذا سيجد العرب المسلمون أرض المغرب.

%

المحور الأول:

انضمام المغرب للدولة الإسلامية  
واستقلاله

## الفتح الإسلامي للمغرب

### تقديم:

نسجل منذ البداية أن مصادر الفتح لا تختلف في مميزاتنا عن باقي مصادر المرحلة الأولى للوجود الإسلامي في المنطقة من ناحية الندرة والقلة وتأخر الظهور وغلبة الطابع الملحمي والاختلافات الكثيرة لحد التناقض، وهذا ما يجعله غامضا إلى حد ما. وما يمكن استنتاجه مما تتوفر عليه من معطيات هو أن فتح المغرب طال جدا (ثلاثي قرن تقريبا) عكس فتوح البلدان الأخرى التي تمت في وقت قصير (مصر ثلاث سنوات- إيران أربع سنوات- الأندلس ثلاث سنوات) وبعد معركة أو معركتين حاسمتين. فما هي مراحل الفتح؟ وما هي عوامل تعثره؟ وما هي إنجازاته؟

### 1- مراحل الفتح الإسلامي للمغرب

#### 1-2- الغارات الاستكشافية

اعتبر المسلمون ولفترة طويلة شمال إفريقيا ثغرا وبلد حرب يوجهون إليه حملات خاطفة ومتقطعة تكتفي بالتجوال وجمع الغنائم ثم الانسحاب إلى مصر. وقد بدأت بعد فتح مصر وخاصة الإسكندرية سنة 21هـ/642م. وأهم الغارات:

#### \* فتح برقة وطرابلس 22-23هـ/643-644م:

قادها عمرو بن العاص والي مصر وحصل على جزية 13 ألف دينار (يقدم فيها أبناء البلد من قبيلة لواتة)، ووجه السرايا جنوبا وغربا نحو الفزان وجبل نفوسة. ثم انسحب بأمر من عمر بن الخطاب الخليفة.

#### \* حملة عبد الله بن أبي سرح على إفريقية عام 27هـ/647م

قاد حملة من عشرين ألف رجل وواجه إمبراطور إفريقية المستقل جرجير في سبيطلة قرب القيروان الحالية فقتله. وتجول بالغات في سهول إفريقية ثم عقد صلحا مع الروم للانسحاب مقابل أتاوة ضخمة (300 قنطار من الذهب أو 2.5 مليون دينار) بعد سنة

وشهرين من الغزو. فعمله لم يكن "إلا غارة طويلة كثيرة الأحداث وافرة الغنيمة" (مؤنس، فتح، ص.106).

### \*حملة عقبة بن نافع عام 41هـ/662م

توجهت من برقة نحو واحات غدامس وفزان وزويلة.

### \*حملة معاوية بن حديج 45هـ/664م

شارك فيها عشرة آلاف مقاتل وتجولت في سهل تونس ووصلت سوسة وجلولاء وبنزرت وجربة، وحصلت غنائم كبيرة (نصيب الفارس في جلولاء 200 دينار). وبعد ما يقرب السنتين ترك البلاد وعاد إلى مصر.

### الحملة الأولى استطلاعية لا تهدف إلى الاستقرار

بل التعرف على المنطقة وإضعاف الروم والغنيمة.

### 1-2-الفتح المنظم

بدأت هذه المرحلة عندما فكر المسلمون في الاستقرار في المنطقة واتخاذ مقرات دائمة وثابتة، لقد صار المشروع إدخالها في أرض الإسلام.

### • حملتا عقبة بن نافع الفهري الأولى والثانية (50هـ/670م و 62-63هـ/681-682م)

سنجمع بين الحملتين بالرغم من الفارق الزمني بينهما لغاية بيداغوجية ومنهجية محضة.

توجهت الحملة الأولى إلى شرق إفريقية كما فعل من سبقوه حيث جدد عملهم، لكنه عبر بوضوح عن رغبته في الاستقرار بالبلاد والاحتفاظ بالمكتسبات، فبنى مدينة القيروان كأول مدينة إسلامية بإفريقية. وقد غير بهذا التصرف مجرى الفتح. ووجه غارات واسعة في كل الاتجاهات خاصة الجنوب. وهو في غمرة نشاطه ونشوته بالنصر استدعاه رئيسه والي مصر مسلمة بن مخلد وعزله سنة 55هـ/675م.

انتظر عقبة سبع سنوات قبل أن يعود إلى إفريقية بتكليف من يزيد بن معاوية بحماس أكبر وتحد أقوى ورغبة في توسع أكبر، فنظم حملته الثانية التي قادته إلى المغرب الأقصى عبر المغرب الأوسط (باغاية- الزاب- شلف- تاهرت- طنجة- السوس) فتجول في مناطق المغرب ووصل السوس الأقصى والمحيط الأطلسي. وعند عودته منتشيا ومعتقدا أنه قد

ضم المغرب تمرد عليه كسيلة بن لمزم في تهودة ببلاد الزاب وقتله سنة 63هـ. وبذلك ينجح في توصيل خبر الإسلام إلى أقصى مناطق الشمال الإفريقي، لكن المنطقة استقلت بعد موته تحت سلطة كسيلة الذي احتفظ بالإسلام وهذا تطور مهم بالمقارنة مع المرات السابقة التي يتم فيها التراجع عنه.

#### • فترة أبي المهاجر دينار 55-62هـ/675-682م

تولى إفريقية بين عهدي عقبة، وأرسل غارات في كل الاتجاهات انطلاقاً من القيروان، لكن أهم ما قام به هو التوسع نحو المغرب الأوسط بمركزه تلمسان حيث كسب ود وحلف كسيلة الأوربي زعيم التحالف الزناتي بقيادة أوربة والذي أسلم وصار صديقاً له وانتقل للإقامة معه في القيروان. وبهذا الفتح زاد خطوة أخرى بالإسلام نحو الغرب.

#### • حملة زهير بن قيس البلوي 69هـ/689م

كانت غايته الأولى الانتقام لمقتل عقبة فنجح في قتل كسيلة واستعاد القيروان، ثم انسحب نحو المشرق وقتل في اشتباك مع الروم في برقة. فعادت أرض المغرب للاستقلال من جديد تحت زعامة الكاهنة داهيا.

#### • حملة حسان بن النعمان 76هـ/695-696م

اختلف المؤرخون حول تاريخ وصوله بين 73 و76هـ، لكن أحداث الدولة الإسلامية تجعل التاريخ الثاني أكثر ترجيحاً. وتوجه اهتمام حسان نحو القضاء على عناصر المقاومة من الروم والبربر وفك تحالفها وبناء علاقة المسلمين بالبربر على أساس من التحالف والولاء. فبدأ بفتح قرطاج ووزع الغارات في كل الاتجاهات، وواجه الكاهنة في الأوراس فهزمته وطاردته حتى شرق طرابلس واستقلت بإفريقية. وبعد انتظار حوالي ثلاث سنوات (78-81هـ) عاد بقوة أكبر وخطه أمتن فدخل قرطاج وهدمها ثم اصطدم بالكاهنة وقتلها وضم جزءاً من رجالها حلفاء. ثم بنى مدينة تونس على الساحل المتوسطي قرب قرطاج عام 84هـ. ومرة أخرى لم يترك للتمتع بنصره إذ عزله والي مصر عبد العزيز بن مروان.

#### • حملة موسى بن نصير 85-86هـ/705-706م

جاء لينهي عمل سابقه فقام بحملة واسعة في كل الشمال الإفريقي خاصة المغرب الأوسط والأقصى، وقضى على كل جيوب المقاومة، وأرسل الغارات نحو صقيلية وسردينيا والواحات الصحراوية والأندلس. وبذلك أتم فتح المنطقة وضمها إلى دولة الإسلام لتصبح ولاية أموية.

صار المغرب ولاية إسلامية أموية يحكمها وال في القيروان أو الفسطاط في مصر، لكن ذلك تطلب وقتا وجهدا كبيرا. فلماذا هذا الطول؟

### 3- أسباب تعثر الفتح

تفصل الحملة التي قادها عمرو بن العاص عن حملة بن نصير أربع وستون سنة شهدت معارك كثيرة وقتل فيها قادة كثر وحدثت حركة مد وجزر في امتداد الإسلام في المغرب، وهذا أمر لم تألفه الفتوحات الإسلامية إلا في الهند. فما هو السر في ذلك؟

يمكن التمييز داخل أسبابه بين الخارجي المشرقي المرتبط بالفاتحين والداخلي المغربي المتصل بأوضاع البلاد المفتوحة.

### 3-1- عوامل مشرقية

#### • عدم رغبة الخلافة في المجازفة

حذر سجل في العراق والشام من قبل، فالخلفاء لا يريدون المجازفة والدخول في حروب لم يستعدوا لها أو التوغل في مناطق بعيدة أو تفصلهم بحار عن عاصمة الخلافة. وقد احتفظ المؤرخون بقولة ينسبونها للخليفة عمر بن الخطاب وجهها لعمرو بن العاص لما استأذنه في فتح إفريقية جاء فيها "إنها ليست إفريقية، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت". وسواء أكانت القولة صحيحة أم غير صحيحة فهي تعكس التردد الذي طبع اتخاذ قرار فتح المغرب. ونفس التردد سيسجل عند عثمان لما طلب منه ابن أبي سرح إذن غزوها حيث أمره بعدم التغرير بالمسلمين وسيقال هذا عن الوليد وموسى بن نصير بشأن فتح الأندلس.

#### • بعد مصدر القرار:

كانت عاصمة الخلافة في المدينة والكوفة ودمشق وعاصمة الولاية في الفسطاط في مصر، وهذه مناطق بعيدة عن مسرح العمليات مما يتطلب وقتا طويلا لنقل الأخبار وإيصال الدعم بوسائل العصر مما كان يفوت الفرص على المقاتلين. ولنا في مثال حسان بن النعمان خير مثال إذ انتظر ثلاث سنوات ليحدد الحرب مع الكاهنة حتى إن مركزا حضاريا قام في مكان معسكره عرف بآبار النعمان.

## • مشاكل الخلافة والولاة

فترة مليئة بالأزمات السياسية والعسكرية في عاصمة الخلافة والأقاليم، ومنها: الأزمة الكبرى ومقتل عثمان- صراع علي ومعاوية- خلافة يزيد بن معاوية- قتل الحسين- ثورة ابن الزبير، وصراع العصبية وممثليها من الولاة وخضوع الإدارة لنزوات الأشخاص (مسلمة وعقبة- عبد العزيز وحسان- موسى والوليد). وكل هذا عطل الفتوح أو أخرها.

## • ضعف خبرة القواد وجشعهم

يلاحظ خاصة في المرحلة الأولى كثرة التفكير في الغنائم والأتاوات مما جعل الفاتحين يظهرون في أعين البربر كباحثين عن المال فقط مثلهم مثل المحتلين السابقين. كما كان بعضهم يجهل أو يتغافل عن أصول التعامل مع الزعماء المحليين (ارحموا عزيز قوم ذل)، وتحتفظ المصادر بمعاملة قاسية لعقبة التقي مع زعماء محليين (ودان=جدع الأنف/ جرمة= مشي طويل لبدين/ آخر= قطع أصبع/ كسيلة =ذبح تيس بيده)، وميز ناحية البربر لذلك فشلت الجهود الأولى لضم المنطقة ولما فطن الزعماء العرب لذلك بداية بأبي المهاجر ومرورا بحسان بن النعمان وموسى بن نصير وغيروا معاملتهم نجحوا في كسب البربر وفتح المغرب.

## 3-2- عوامل مغربية

### • الوضع الجغرافي للمغرب

المغرب بعيد عن عاصمة الخلافة وحتى الفسطاط في مصر، والمغرب متقطع التضاريس وصعب المواصلات، ومناخ المغرب قاس في الشتاء بالنسبة للفتاحين من سكان الصحراء. وهذا يؤثر كثيرا على نشاط الفاتحين.

### • الوضع السياسي

كان المغرب في هذا الوقت منطقة تجاذب بين بيزنطة والمسلمين لذلك كان البربر يجدون دائما دعما من الروم يميل الكفة لصالحهم، كما أن الروم لم يتوقفوا عن الهجوم على المنطقة وقتل بعض القادة (زهير البلوي). وساهم انقسام المغرب بين عدة قبائل في جعل المقاومة متعددة وشرسة، فكلما هزمت مجموعة حلت أخرى محلها مستغلة التضاريس الوعرة ومعرفتها بالبلاد وكذلك سهولة تنقلها بفضل نمط عيشها القائم على الترحال.

## • رغبة البربر في الاحتفاظ باستقلالهم

هذا أمر جرب مع الغزاة السابقين ونجح نسبيا في بقاء القسط الأكبر من البلاد خارج سيطرتهم، لذلك جرب البربر هذا النهج مع المسلمين وحاولوا أن يبعدهم بوسائل متنوعة (حرق المراعي- أتاوات- قتال).

انتهى الفتح بعد جهد وصارت البلاد أرضا أموية، فهل صارت إسلامية مسلمة؟

### 3- الإسلام والتعريب في المغرب بعد الفتح

كتب حسين مؤنس فقال: "إن المغرب القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة وحضاراته الواهنة، وحل محله المغرب الإسلامي، أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة وواجهة واحدة." (فتح المغرب، ص.299).

فهل فعلا أسلم الناس وانتشر الإسلام كما يفهم من هذا الكلام؟

نبدأ بالبحث عن الوسائل التي يملكها المسلمون لنشر الإسلام:

- فرض النطق بالشهادتين على كل من غلبوه أو خضع لهم مما يجعل منه مسلما بالاسم.

- تبليغ بعض التعاليم لبعض الزعماء بالخصوص.

- تعليم الناس بالمشاهدة.

- بناء بعض المساجد (القيروان- تونس- شاكرا- إيجلي- نفيس- مساجد أخرى)

- استقرار بعض التابعين في مدن لتعليم الناس تعاليم الإسلام.

- ترك موسى سبعة عشر رجلا لتعليم المصامدة القرآن وتعاليم الإسلام (ابن عذاري ج42/1).

فهل تكفي هذه الأشياء لنشر الإسلام على نطاق واسع كما تؤكد القولة السابقة؟

يبدو أن كلام مؤنس يدخل في نطاق الحماس والكلام المبسط الذي لا يستند إلى واقع الأشياء والمصادر.

- إن الأفكار الدينية من أكثر الأفكار رسوخا وثباتا ومقاومة، لذلك يتطلب تغييرها وقتا طويلا وجهدا أكثر مما توفر للفاتحين.

- إن المصادر تتحدث عن أحداث لاحقة وتذكر نشر الإسلام في أوساط البربر (إدريس 1 و2- المرابطون- الموحدون..)

- يرد في المصادر حديث عن عبادات وثنية في المنطقة خلال القرن 5هـ/11م (عبادة الخروف).

- إن التعليم بالمشاهدة مس فقط فئة قليلة من الزعماء أو الجنود أو الساكنة التي تقع على ممرات المواصلات، أما المناطق الداخلية فربما لم تسمع حتى بمرور الفاتحين.

- مرت حركة الفتوح فقط في الطرق الرئيسية والمدن أما المناطق الداخلية والبوادي فقد ظلت بعيدة عنها وعن تأثيرها.

- الأغلبية إن لم يكن كل السكان تجهل العربية والفاتحون يجهلون الأمازيغية، فكيف سيتم التواصل بشكل واسع مع السكان؟

يبدو من خلال هذه الأمور أن انتشار الإسلام ما زال في بدايته وكل ما يجب الأخذ به هو أن المغرب صار من الناحية السياسية مسلما وأن الباب صار مفتوحا لانتشار الإسلام لكن ذلك سيتطلب قرونا وجهودا كثيرة.

ونفس الشيء ينطبق على العربية إن لم يكن أكثر، فحضورها سيقصر على الحواضر وفي أوساط الموالي ومن يحتك بالعرب مباشرة أما الأغلبية الساحقة فستجهلها وستبقى بعيدة عنها.

## خاتمة

طالت حركة الفتح أكثر من اللازم لأسباب ذاتية وموضوعية، ونجحت في الأخير في إدخال المغرب في حظيرة الإسلام لتفسح المجال لنشاط الدعاة من كل المذاهب وخاصة المعارضة ليقوموا بعملهم في الأسلمة والتعبئة السياسية.

%

## عصر الولاة

انتهى الفتح وصار المغرب إقليميا إسلاميا أمويا، وصار عبء تسييره على كاهل الدولة التي صارت تعين ولاة على رأسها إما من دمشق أو الفسطاط مركز ولايات المغرب كاملا. وقد استمرت هذه الفترة حوالي ربع قرن تعاقب على البلاد خلالها ست ولاة توزعت اهتماماتهم بين توسيع مجال الدولة وتنظيم البلاد الإداري والمالي، لكن عملهم كان مشوبا بأخطاء وتجاوزات فجرت الأوضاع.

### 1-الولاة المتعاقبون

كان عدد الولاة ست ولاة عينوا إما من قبل الخلفاء في دمشق أو من قبل والي مصر لأن المغرب ظل تابعا لمصر في أغلب الأوقات.

\* محمد بن يزيد القرشي (97-99هـ/716-717م) عينه الخليفة سليمان بن عبد الملك.

\* إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر (100-102هـ/718-720م) عينه عمر بن عبد العزيز لتقواه.

\* يزيد بن أبي مسلم (102هـ/720م) عينه الخليفة يزيد بن عبد الملك وقتل على يد حرسه بعد أشهر، وعوضه مؤقتا قائد الأسطول محمد بن أوس الأنصاري.

\* بشر بن صفوان (102-109هـ/727-728م) والي مصر الذي جمع المغرب ومصر.

عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (110-115هـ/728-733م) عينه الخليفة هشام بن عبد الملك.

\* عبيدة الله بن الحبحاب القيسي (116-123هـ/734-741م).

### 2-أعمال الولاة

يبدأ عهد كل وال بتصفية تركة الوالي السابق بإقصائه وكل أعوانه (القتل- العقاب- مصادرة الأموال- إلغاء التنظيمات ...)، لذلك كانت البلاد؛ إلا نادرا، تعيش حالة اضطراب ورعب وخوف في بداية كل ولاية جديدة مما كان يدفع السكان إلى تجنب التورط مع الحكام ويعزفون عن التعاون معهم.

تحظى إدارة البلاد بعناية الولاة، لكن المصادر لا تحتفظ إلا ببعض المعلومات القليلة. فيزيد بن أبي مسلم خلق حرسا من البربر على النمط البيزنطي لحمايته وتعميم الأمن في العاصمة القيروان، لكنه سيكون وراء قتله (ابن عذاري، ج1، ص.48). أما عبيد الله بن الحبحاب فقام بتقسيم إداري جديد للمنطقة فأحدث ثلاث ولايات: ولاية السوس الأدنى (طنجة ونواحيها) وولى عليها عمر بن عبد الله المرادي وولاية السوس الأقصى وولاية إفريقية. ويعود تنظيم المدن على الطريقة الإسلامية إلى هذه الفترة حيث يعين عليها محتسب وتنظم الأسواق ويعين عليها أمناء.

اهتم الولاة أيضا بدورهم في توسيع مجال الإسلام في المناطق المجاورة وكذلك حماية حدوده من الأعداء. وقد عمل أغلب الولاة على ضم مختلف القبائل البربرية إلى الإسلام والدولة الأموية، فهذا "محمد بن يزيد يبعث السرية إلى ثغور إفريقية، فما أصابه قسمه عليهم" أما إسماعيل بن أبي المهاجر ف"مازال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه" (ابن عذاري ج1 ص.47-48). ونظمت غارات وحملات كبيرة على الأراضي الجنوبية وصولا إلى بلاد السودان خاصة على عهد ابن الحبحاب، وكذلك الشمالية خاصة صقلية وسردينيا وجنوب فرنسا التي صارت الصوائف توجه إليها باستمرار وتعود بالغنائم في أغلب الأحيان.

حرص الولاة على تنظيم البلاد وضبط الجباية، فسخروا كل إمكانياتهم للحصول إلى أكبر قدر من المداخيل لتغطية نفقاتهم وتضخيم ثرواتهم وشراء مناصبهم من الخلافة في دمشق. فقد كانت الخلافة الأموية منذ انتهاء زمان الفتوح الكبرى في أزمة مالية واحتاجت إلى الزيادة من مداخيلها بكل الطرق، فانتهجت سياسة جباية متعسفة. وقد عانى المغرب من التعسف وصار خاضعا لاجتهادات الولاة في وضعه القانوني وكان الجواب عن السؤال: هل المغرب فتح عنوة أو صلحا؟ محددا لسلوك الولاة، فالتقاة مثل إسماعيل بن أبي المهاجر يختار الصلح أما عمر المرادي وأمثاله فاخترتوا العنوة واعتبروا كل أرض المغرب وسكانه ملكا للدولة يأخذون منها ما شاؤوا ويتركون ما شاؤوا. فالمرادي "تعدى في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين" (ابن عذاري 1/51-52). وتوسع النهب ليشمل الإنسان إذ كان العمال تحت طلب الخلفاء "يبعثون لهم بالبربريات السنيات، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة" (ابن عذاري 1/52). وتعدت التحف ذلك وطلبوا "الجلود العسلية، فتذبح مائة شاة؛ فربما، لم يوجد منها جلد واحد" (أخبار مجموعة ص.31-32). وبهذه السياسة المالية خلق الولاة بالبلاد جوا من الغضب والتذمر والسخط في أوساط البربر.

ارتكب الولاة أخطاء كثيرة حيث نقلوا النزاعات العربية المشرقية بين القيسية واليمانية إلى المغرب خاصة في عهد عبيدة بن عبد الرحمن السلمي الذي فضل القيسية؛ وربما كان هذا سبب عزله. وعامل العمال والعرب عامة البربر باحتقار وتهميش حتى وهم في الجيش أو الإدارة، فقد اعتبروا موالي وعبيدا للعرب، فهذا يزيد بن أبي مسلم يعامل أفراد حرسه البربر كمماليك البيزنطيين بالوشم في أيديهم (اسم في اليمين وحرسي في الشمال) فقتل على أيديهم. وإذا شارك البربر في الغزوات يوضعون في الصفوف الأمامية ويعطون نصف الحصاة من الغنيمة لأنهم موالي، وتصرف الولاة في أموالهم وأولادهم وخاصة البنات تصرف المالك دون مراعاة لإسلامهم.

#### خاتمة

كان عصر الولاة فترة حاسمة في تاريخ المغرب الإسلامي فقد رسخت من انتمائه للإسلام ودولة الإسلام، لكنها حفلت بأخطاء كشفت عجز المسلمين عن تطبيق تعاليم الإسلام واحترامها في معاملة الشعوب الإسلامية غير العربية مما فجر الوضع وقيام ثورة المغاربة.

%

## ثورة المغاربة الخوارج

انفجرت في منطقة طنجة ثورة ضد عاملها عمر بن عبد الله المرادي وقتلته، ثم انتشرت إلى باقي نواحي المغرب الأقصى ثم المغريين الأوسط والأدنى، وحققت انتصارات كبيرة على جنود الأمويين نتج عنها استقلال البلاد. فما هي أهم أحداثها؟ ومن هم قادتها؟ وماهي أسبابها؟ وما هي أهم نتائجها؟

### 1-أحداث الثورة

تزعّم الثورة شخص يدعى ميسرة المطغري أو المدغري من قبيلة مدغرة أو مطغرة البترية الزناتية، وينعت بالحقير والخفير والفقير وهي أسماء قد يكون للنساخ دور أساسي في ظهورها أو قد تكون مرتبطة بأحداث عاشها في حياته. فقد قضى زمانا بالقيروان عمل خلاله سقاء وخفيرا وتلقى مبادئ المذهب الخارجي هناك، بل نجح في تزعم أتباعه. وكان ضمن الوفد المغربي الذي ذهب إلى دمشق للتظلم للخليفة هشام بن عبد الملك من تعسف عامله وأتباعه وعاد محبطا يائسا من إصلاح الأمور عازما على الثورة ضد الظلم.

بدأت أحداث الثورة بقتل عامل طنجة المرادي (15رمضان 122هـ / 13 غشت 741م)، وانضمت إلى الثوار قبائل عديدة مثل مكناسة وغمارة وبرغواطة، وتصدت لتدخل عامل السوس الأقصى إسماعيل بن عبيد الله وقتله وبذلك عمت الثورة كل المغرب الأقصى. وحدثت خلافات بين الثوار ربما بسبب رفض ميسرة تعميم الثورة فعزل وقتل وعين مكانه خالد بن حميد الزناتي. وزحف الثوار نحو الشرق.

لما وصلت أخبار الثورة إلى القيروان أرسل عبيد الله بن الحبحاب جيشا تحت قيادة خالد بن أبي عبيدة الفهري في أشرف العرب، فاصطدم بالثوار على وادي الشلف غرب المغرب الأوسط في "معركة الأشرف"، فانتصر الثوار وزاد انتشار الثورة في المغرب ووصلت إلى الأندلس.

غضب الخليفة هشام للهزيمة وأرسل جيشا كبيرا من دمشق قوامه ثلاثون ألف رجل يقوده كلثوم بن عياض القشيري وابن أخيه بلج بن بشر وانضم إليه باقي جند إفريقية لسحق الثوار وإبادتهم، لكن غرور القشيري والخلافات الداخلية لهذا الجيش (أهل إفريقية// أهل الشام) وحماس الثوار وحسن تنظيمهم أدت إلى هزيمته في معركة بقدورة على واد سبو وقتل ثلث الجيش وانسحب ثلثه نحو المشرق وحوصر ثلثه في سبتة. وخلال هذه المعركة أظهر الثوار

قدرة عالية على التنظيم بحيث حلّقوا رؤوسهم ليتعارفوا فيما بينهم في الميدان واستعملوا الجلود المنفوخة لإخافة خيول العرب ليحصل التكافؤ بين الطرفين ويقللوا من تفوق الفرسان العرب. وانفصل المغرب بعد هذا النصر واستقل عن الأمويين وانتقلت الثورة نحو المشرق. لكن البلاد ستدخل في غموض كبير ولن تتمكن من معرفة شيء عنها إلا بعد أربع سنوات عندما قامت إمارة برغواطة في تامسنا.

انتقلت الثورة إلى المشرق، فثار في قابس عكاشة بن أيوب الفزاري الزناتي الصفري واحتل ضواحي طرابلس بعد مرور حملة كلثوم القشيري مستغلا فراغ إفريقية من جندها. وثار في الشمال عبد الواحد بن يزيد الهواري وسيطر على تونس. وتسابقا من أجل السيطرة على القيروان لكنهما انهزما أمام العامل الجديد حنظلة بن صفوان على التوالي في معركتي الأضنام والقرن عام 124هـ/742م ، فانسحب الخوارج إلى قاعدتهم في الزاب في السنة الموالية، وطورد خوارج نفزاوة في طرابلس ونواحيها.

في ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري استعاد الخوارج نشاطهم منذ عام 127هـ/745م بزعامة عاصم بن جميل الورفجومي الذي هزم عبد الرحمن وخرّب القيروان، لكن عبد الرحمن عاد وهزمه في الأوراس وطارد الخوارج دون أن يقضي عليهم. وتجدد نشاطهم مرة أخرى مع عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي سنة 140هـ/758م وقتل ابن حبيب الفهري وسيطر على القيروان ومد نفوذ قبيلته على كل إفريقية. ثم دخل في صراع مع زعيم خارجي آخر وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري الهواري الإباضي المستقر في القيروان، فانهزم أمامه وقتل وطردت ورفجومة من القيروان التي تولى أمرها عبد الرحمن بن رستم الفارسي. وعندما جاء عامل أبي جعفر المنصور العباسي محمد بن الأشعث هزم أبا الخطاب وقتله مستغلا اختلال صفوفه وانقسام أباعه (زناتة// هواره) سنة 144هـ/762م، ففر ابن رستم إلى موقع تاهرت غرب المغرب الأوسط فكون إمارة الإباضيين. وبالرغم من تراجع خطر الخوارج إلا أن خطرهم ظل حاضرا في إفريقية وكان على الولاة المتعاقبين (يزيد بن حاتم ومن بعده) مواجهتهم المرة بعد الأخرى.

لقد حققت الثورة كل هذه النجاحات فلماذا قامت؟

## 2-أسباب الثورة

يمكن تلخيص أهم أسبابها في ثلاثة عوامل رئيسية:

- عامل مادي: سبق التفصيل فيه عند الحديث عن السياسة الجبائية للولاة والتي تميزت بالتهب وعدم احترام الشرع واعتبار المغرب أرض عنوة (خراج).

- عامل قومي: سبق الحديث عنه أيضا ويتلخص في المعاملة السيئة للبربر والتي تميزت بالاحتقار والتهميش وعدم الإنصاف.
- عامل مذهبي: لم يكن العاملان السابقان ليحققا أية نتيجة لولا التأطير الذي وفره الفكر الخارجي بفرعيه الصفري والإباضي.

لقد استغلت فرق المعارضة الخارجية والشيعية بعد المغرب عن رقابة الدولة الأموية لتنشر أفكارها وتضم أتباعا هناك استعدادا لمعركة الحسم. واستفادت من سخط البربر وغضبهم من معاملة الحكام لتجلبهم وتسلب عقولهم بفكرها المائل إلى التقشف والبساطة والمساواة والعدل والالتزام بمبادئ الشرع. وقد نجحوا في كسب تأييد قبائل بربرية من طرابلس وجبل نفوسة حتى طنجة. ولا ندري بالتدقيق متى دخل هذا الفكر إلى المغرب لكن يرجح أنه وصل في نهاية القرن الأول وبداية الثاني. وكان أول زعماء الصفرية بالقيروان عكرمة بن العباس الذي نجح في تكوين أتباع مثل ميسرة المطغري وسمكو بن واسول المكناسي وطريف بن شمعون وعبد الأعلى بن جريج، وقد انتشرت الصفرية أساسا في غرب البلاد. أما زعيما الإباضية في المغرب فهما سلمة بن سعيد ومحمد بن عبد الحميد بن معيطر اللذان كونا الأتباع وأرسلاهم إلى البصرة لتعميق التكوين. وكانت ليبيا (طرابلس وجبل نفوسة والزاب) المجال المفضل عند الإباضيين.

بهذا الإطار الفكري دخل البربر معركة الاستقلال وكسبوها، فماذا حققوا بثورتهم؟

### 3-نتائج الثورة

حققت الثورة نتائج متنوعة تتمحور حول الاستقلال.

- استقلال المغرب عن المشرق والدولة الأموية وبعدها العباسية والتخلص من التبعية.
- تكوين إمارات مستقلة خارجية أساسا أهمها: إمارة بني مدرار بسجلماسة وإمارة الرستميين بتاهرت وإمارة بني صالح بنكور وإمارة برغواطة بتامسنا.
- عودة بعض المناطق إلى حكم النظام القبلي.
- دخول البلاد في حالة من الغموض بإهمال المؤرخين المسلمين لأخبارها وابتعادها عن الأضواء.
- تأخر في الاستفادة من المد الحضاري الإسلامي مقارنة مع المشرق
- فسح المجال لنشر الإسلام على طريقة الخوارج.
-

## خاتمة

بعد الجهد الكبير للفاتحين لضم المغرب، لم يعمر الحكم الأموي في البلاد إلا ربع قرن لتعود للاستقلال تحت لواء إمارات مستقلة متنوعة دون أن تفرط في الدين الجديد حتى ولو كان بلباس الإسلام الخارجي.

## الإمارات المستقلة

## إمارة برغواطة

### مقدمة

انفجرت الثورات الخارجية في المغرب وانتهت باستقلاله عن الأمويين، لكنها ألفت به في جو من الغموض واختفت كل أخباره. ولما عادت الأخبار استقبلنا بمجموعة من الإمارات الصغيرة في نكور وسبتة وتلمسان وسجلماسة وتاهرت وتامسنا، وإذا كانت أغلب الإمارات صغيرة وتأثيرها في الأحداث محدود، فإن الأخيرة انفردت بأهمية كبيرة لما تميزت به من خصوصيات في مذهبها الديني وقدرتها الكبيرة على المقاومة لفترة طويلة. ولذلك تشكل دراستها أهمية خاصة.

لم تشفع أهمية الإمارة لها عند المؤرخين حيث تجاهلوا ولم ترد أخبار عنها إلا خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وكان ابن حوقل أقدم من كتب عنها وتلاه البكري في القرن الخامس وعنه سيأخذ أغلب من كتب عنها. ومن المصادر التي كتبت عنها نذكر:

- ابن حوقل، صورة الأرض
- البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب<sup>1</sup>
- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار
- ابن عذاري، البيان المغرب، ج1
- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب
- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج1
- ابن خلدون، العبر، ج6
- الناصري، الاستقصا، ج1

ولم يكتب عنها المشاركة شيئاً كما أن ما كتب عنها كان من أجنب من خارجه إلا اعتبرنا ما ورد عند البكري أصيلاً.

ونفس الإهمال واجهته مع الدارسين المعاصرين الذين لم يكتبوا عنها إلا القليل وأشبعوا أخبارها تأويلاً وتحريفاً، ومن أهم ما كتب عنها:

-SLOHCH N., L'empire des Bergwata et les origines de blad es-siba

---

<sup>1</sup> - أخذ البكري عن برغواطة من رواية أبي صالح زمور بن هشام بن واردزين سفير برغواطة إلى قرطبة؛ بترجمه أبي موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاقي المسلم، وفضل بن مفضل بن عمرو المذحجي.

-Marcy G., Dieux des Abadites et des Bargwata, Hespéris,t21, fasc.1, 1922.

- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج1

- حركات " ، المجتمع الدكالي والفكر الديني، مجلة دعوة الحق، عدد 224، غشت 1982.

- مادتا مصمودة وبرغواطة في دائرة المعارف الإسلامية

- محمود إسماعيل، الخوارج ببلاد المغرب،

- " " ، مغربيات: دراسات جديدة، المحمدية، 1977.

- إبراهيم خلف العبيدي، البرغواطيون في المغرب، 1983.

- رجب محمد عبد الحليم، دولة بني صالح بتامسنا، دار الثقافة الفجالة.

- مادة برغواطة في معملة المغرب

- Berghwata, Ency. De l'Islam, t.1

وسنتناول هذا الموضوع بناء على العناصر التالية: الأرض والسكان والتطور السياسي والديانة.

## 1- الأرض والسكان

قامت برغواطة في أرض تامسنا (الشاوية الحالية) التي تمتد بين نهري أبي رقرق شمالا وأم الربيع جنوبا، لكن حدود الإمارة امتدت في بعض الأوقات أكثر نحو الجنوب لتضم دكالة وعبدة والحوز وشمالا حتى المعمورة. وتتميز هذه المنطقة بطابعها السهلي وقلّة الارتفاعات وتربيتها الخصبة (الترس) ورطوبة مناخها. وتخرقها أنهار عديدة أهمها النهران المذكوران أعلاه مما يوفر مياهها كثيرة، كما توجد بها غابات ومروج غنية. وكل هذه المؤهلات تجعل منها منطقة فلاحية كبيرة لحد أنها اعتبرت في العصر الوسيط فدان المغرب وخزان حبوبه (سهل وجودها اختيار موقع مراكش).

تتوفر المنطقة على سواحل طويلة تسمح لها بالانفتاح على الخارج؛ وخاصة الأندلس، عبر موانئ أزموور وأنفا والرباط وسلا. وهي أيضا معبر للطرق التجارية البرية الآتية من جنوب البلاد أو شمالها.

إنها منطقة غنية فلاحيا وتجاريا مما يوفر الدعائم الضرورية لحكامها ويجعلها مطمعا للجيران والأعداء.

يتكون سكان تامسنا من قبائل برغواطة التي يقال إن اسمها اشتق من اسم مؤسس الدولة الذي جاء من وادي برباط بكورة شدونة جنوب الأندلس فحرف أسم برباطي إلى برغواطي ثم عمم الاسم على كل السكان. وهذا تأويل معقد يصعب القبول به، لكنه أهم ما توفر لحد الآن.

اختلف المؤرخون حول مكونات برغواطة القبلية، فبعضهم يرى أنها خليط من القبائل الزناتية أطلق عليه هذا الاسم. أما ان خلدون فيرى أنها مصمودية من الجيل الأول وهذا الرأي أكثر تداولاً وقبولاً. ومن أهم القبائل التي دانت بمذهب برغواطة: جراوة وزواغة والبرانس ومطغرة وبنو دمر وبنو أبي ناصر وفحصة وبنو أبي نوح ومطمامة وبنو تادمر وبنو يوزغ وبنو واكينست. وقبائل أخرى مسلمة خضعت لسلطة برغواطة ومنها: أزموور وبنو يفرن وبنو أفلوسة وزناتة الجبل وبنو يليت ومحلته وبنو واد وبنو ناغيت وبنو النعمان وبنو كونه وبنو يسكر وأصادة وركانة ووايزمين ومنادة وماسينة ورسانة وترارته وتمغراوة.

شكل هذا الخليط القاعدة البشرية للإمارة وتجمعت حول مركز العصبية برغواطة وظلت لقرون تدافع عن بلدها.

## 1- التطور السياسي للإمارة

### 1-2- طور التأسيس (122هـ- 741/224-839م)

تأسست الإمارة على يد طريف أبو صالح (122هـ-127م) الذي اختلفت المصادر حول أصله، فهو إما يهودي (من ولد شمعون بن يعقوب)، أو بربري برغواطي جاء من وادي برباط بالأندلس أو مسلم، وبالرغم من اضطراب هذه الأقوال فهي لا تتناقض بل تتكامل، ويمكن ترتيبها على الشكل التالي: بربري يهودي؛ ربما أسلم، هاجر إلى الأندلس ثم عاد منها إلى تامسنا موطنه الأصلي. ويقال إنه هو الذي قاد الحملة التمهيدية لفتح الأندلس سنة 91هـ/710م وباسمه سميت جزيرة طريف، وانضم إلى مذهب الخوارج وشارك في ثورة ميسرة، ثم انسحب إلى تامسنا وأسس إمارته وهناك توفي.

خلفه ابنه صالح (127-174هـ) الذي اشتهر بوضع ديانة برغواطة، وقد وصفته المصادر بالذكاء والمعرفة بالسحر والفلك والتنجيم. رحل إلى المشرق وتعلم هناك ثم عاد ليضع أسس ديانته. وقد اعتبر نفسه المهدي المنتظر وآخر الأنبياء، ورحل في آخر عمره إلى

المشرق واعدأ أتباعه بالعودة في عهد خلفه السابع، كما أوصى ابنه بالاحتفاظ بديانته وكتمان أمرها حتى تظهر قوته، وأوصى أيضا بمحالفه أهل الأندلس.

خلفه أبنة إلیاس الزاهد العفیف (174-224هـ) فتظاهر بالإسلام حتى وفاته. وبذلك انتهى عهد التأسيس لتدخل الإمارة عهد القوة.

## 2-2- عهد الازدهار

بدأ هذا العهد بتولي یونس بن إلیاس (224-268هـ) الذي تخلط المصادر بینه وبين جده صالح، حيث تقول إنه رحل إلى المشرق وتعلم هناك الكهانة والتنجيم والكلام، ولما تولى أظهر ديانة برغواطة، وجعل شالة عاصمته. ودخل في حروب قوية مع القبائل المجاورة له ووسع مجال إمارته على حسابها. وتذكر المصادر أنه فقط في معركة تاملوکاف أحرق 380 مدينة وقتل 7770 رجلا.

ولما مات انتقلت السلطة إلى فرع ثان من برغواطة لسبب مجهول قد يكون نتيجة صراع داخلي أو لعدم وجود وريث مناسب في الفرع الأول أو للسيطرة الإدريسية، ويبقى السبب الأول أكثر ترجیحا.

وقد تعاقب على السلطة بعده أبو عفیر (268-297هـ) وأبو الأنصار عبد الله ابنه (297-341هـ) وأبو منصور عیسی (341-369هـ). وفي عهدهم زادت قوة برغواطة وكثرت حروبها (تیمغسن وبهت) وزاد احترام الجیران لها. وتضخم الجيش ليصل إلى خمس وعشرين ألف رجل (3000 من برغواطة – 10 بلاف من قبائل على ديانتها – 12 ألفا من المسلمين).

انتهى هذا العهد بقتل بلقين بن زيري الصنهاجي والي الفاطميين على إفريقية لأبي منصور واختفت الأخبار عن برغواطة في المصادر، لكن يبدو أنها استعادت قوتها فيما بعد لأنها ستواجه الفتى واضحاً الأموي بعد ثلاث سنوات وستواجه بني يفرن حكام سلا وسنلتي بها بعد ثمانين سنة تقريبا قوية وقادرة على مواجهة المرابطين وهزمهم وقتل زعيمهم عبد بن یاسين.

## 3-3- العلاقة بالجیران

كانت برغواطة هدفا دائما لجیرانها من الإمارات وحتى من القبائل أو الأفراد.

بدأت المواجهات مع الأدارسة منذ عهدي إدريس الأول وإدريس الثاني (172-213هـ) حيث اعتبروا برغواطة مجوسا تجب محاربتهم وضمهم إلى الإسلام، فنظموا عدة غارات فشلت

في القضاء عليهم بالرغم من أنها، وكما يستنتج من مجال الأدراسة المقسم بين أبناء إدريس الثاني، انتزعت منهم مجموعة من الأراضي وطوقتهم من الجهات البرية الثلاث.

ويذكر ابن حوقل أن الشاكر بالله المدراري عزم على غزوهم سنة 340هـ/950م، لكنه لم ينفذ ذلك.

ولما دخل الفاطميون والأمويون في صراعهم حول ضم المغرب الأقصى كانت برغواطة مستهدفة منهما مباشرة أو من قبل حلفائهما. ففي سنة 366هـ/977م هاجمهم جعفر بن علي الأموي لكنهم هزموه هزيمة منكرة. وفي عام 372هـ، أرسل المنصور العامري الفتى واضحا وحقق انتصارات كبيرة عليهم. وهاجمهم نائب الفاطميين بلقين بن زيري سنة 369هـ وقتل الحاكم أبا منصور عيسى.

لما تراجع الوجود الأموي بالمغرب وتولى حكم سلا بنو يفرن، قام زعيمهم أبو كمال تميم اليفرني بتنظيم غارات عديدة ضدهم وألحق بهم خسائر كبيرة، حتى إن أحدهم رآه في الحلم بعد موته في حالة حسنة فسأله عن السبب فأخبره أن ذلك كان بفضل جهاده لبرغواطة. وهذا الأمر يعكس الأثر النفسي الكبير الذي تركه في الناس بهذا العمل.

وشاركت قبائل هسكورة في جهادهم، كما كان المتصوفة يرابطون على حدودهم لجهادهم وأنشأوا رباطات هناك.

وسيستمر هذا العمل حتى بعد هذه الفترة مع المرابطين والموحدين.

كانت برغواطة مستهدفة من جيرانها؛ أفرادا وجماعات، باستمرار فلماذا هذا العداء المتأصل؟

### 3- ديانة برغواطة

تتميز ديانة برغواطة بالغموض الكبير، وتكاد الروايات تجمع على أن واضعها هو صالح بن طريف ثاني ملوكهم حيث ادعى النبوة ووضع قرءانا ثم أعلنها حفيده يونس بن إلياس. واختلف حول أصلها ومصدرها وأعطى الباحثون الحق لأنفسهم في الاجتهاد واعتماد أدلة واهية جدا أحيانا لإعطاء تفسيرات. فدي سلان يرى أنها يونانية (اسم الإله ياكش هو باخوس إله الخمر عند اليونان)، ورآها مارسي مسيحية (ياكش = يسوع) ودو فيردان يهودية (ياكش = يوشع)، ورأى فيها آخرون مذاهب إسلامية خارجية (محمود إسماعيل) وشيعي (سعد زغلول عبد الحميد). ويظهر أن هناك اضطرابا كبيرا في هذه الآراء وأنها تعتمد عناصر جزئية لتخرج بأحكام كبيرة (اسم إله- فكرة أو فكرتان تشبه مثلتها في مذهب ما) مع أن

إمكانية استعارة اسم أو فكرة من ديانة أو مذهب هي أمر عادي. لكن القراءة المتأنية لمكونات هذه الديانة ومقارنتها بعبادات مغربية ما زال بعضها قائماً حتى الآن تكشف أننا أمام عملية إبداع قائم على التلفيق بالجمع بين الإسلام والعادات المحلية، وهذا شكل من المقاومة القائم على إرضاء طرفي النزاع (الإسلام وممثلوه// العادات المحلية الموروثة). وسيتضح هذا الأمر أكثر عندما سنعرض مكونات الديانة كما وردت في نصوص البكري وابن حوقل وكتاب "الاستبصار"، وإذا ما قورنت بما ورد في ديانة حاميم الغماري المعاصر.

#### • الكتاب المقدس:

- القرآن: باللغة البربرية وكون من ثمانين سورة تتوزع أسماؤها بين الأشخاص والأنبياء والحيوانات تماماً كما في القرآن. وأسلوبه سجي يحاول تقليد القرآن.

#### • العبادات:

- **الوضوء:** يشبه الوضوء الإسلامي مع بعض الزيادات؛ ربما مبالغة في النظافة. ومن الزيادات غسل الصرة والخاصرتين والرجل إلى الركبتين ومسح الرقبة والقفا والغسل من جنابة الحرام فقط.

- **الصلاة:** عشر صلوات (خمس في النهار وخمس في الليل) وبعضها إيماء وثلاث سجدة متوالية وصلوات مثل المسلمين.

- **الصوم:** صوم في رجب أو شعبان والإفطار في رمضان وأيام أخرى في الأسبوع.

- **الزكاة:** العشر ولا زكاة على المسلمين (قارن لا زكاة على الذمي في الإسلام).

**الأضحية:** تذبح في عاشوراء.

عبادات إسلامية مع تحريفات أو زيادة مبالغة؛ ربما، تعبيراً عن قوة التدين أو جهلاً بما في الإسلام أو زيادة من المصدر.

#### • التشريعات:

- **الزواج:** تعدد الزوجات حسب القدرة والطلاق والعودة دون شرط ومنع الزواج ببنات العم إلا بعد مرور ثلاثة جدد وعدم الزواج من المسلمة ومنع التسري وتحريم الزنا. وكما يلاحظ فهذه محاولة للحفاظ على عادات قديمة في الزواج ومعاملة المسلمين بالمثل. وهذا أشياء كانت موجودة حتى عند العرب قبل الإسلام.

- **قتل السارق:** وهو تشدد في معاملته وهي عادة مغربية ما تزال موجودة حتى اليوم، ووجدت في بعض الأسواق في جبال الأطلس قبور للصوم قتلهم الناس بعد ضبطهم ليكونوا عبرة لكل من يحاول السرقة.

- **نفي الكاذب:** تشدد في معاملته لأنه يثير الفتن داخل المجتمع.

- فرض الدية على القاتل: دية ثقيلة (100 بقرة) لمنع الناس من ارتكاب هذا الجرم وقد يكون دليلا على ندرته في هذا المجتمع.
- تحريم أكل رؤوس الحيوانات والبيض وكراهة الدجاج وتذكية السمك وعدم ذبح الديك. هذه عادات ما تزال موجودة في بعض مناطق المغرب إما بشكل كامل أو جزئي إما مكشوفة أو تغطي عليها بعض القشور (الأطلس الكبير لا يأكلون الرؤوش وأحشاء الذبائح- الدجاج لا يؤكل إلا لعلاج الجرحى أو لأعمال سحرية- البيض يغسل سبع مرات قبل الأكل...).

كما يلاحظ فهذه الديانة هي مزيج من التعاليم الإسلامية والعادات المحلية مع ما يرافق ذلك من تحريفات أو زيادات أو مبالغة وجدت عند كل الشعوب والجماعات بما فيها تلك التي التزمت بالإسلام السني (المتصوفة كما تبين كتب المناقب). وهذا يؤكد على مقاومة العادات المحلية للنسيان ومحاولة التحايل على الأفكار الجديدة.

#### خاتمة

كانت برغواطة قوة سياسية في المغرب ما قبل- مرابطي، لعبت دورها في صياغة تاريخ البلد بالرغم من تجاهل المصادر. وهي تعكس شكلا من أشكال المقاومة المحلية للفكر والدين الجديد وتقدم شكلا لإسلام وسيط ساد بعض مناطق المغرب قبل أن تعمل حركات التنميط على توحيد الصورة والنمط (المذهب المالكي).

## ملحق نصوص

**برغواطة:** (البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ص.136-141).

"أخبر أبو صالح زَمّور بن موسى بن هشام بن وارديزن البرغواطي، وكان صاحب صلاتهم حين قدم على الحكم المستنصر بالله رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور بن عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي عفير يحمّد بن معاذ بن أليسع بن صالح بن طريف، وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه، وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاسي من أهل شلة مسلم من «3» بيت خيرون بن خير. فأخبر زَمّور أنّ طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق وأبوه كان من أصحاب ميسرة المطغري المعروف بالحقير ومغرور بن طالوت. وإلى طريف نسبت جزيرة طريف. فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه احتلّ طريف ببلد تامسني، وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة. فقدّمه البربر على أنفسهم وولي أمرهم، وكان على ديانة الإسلام إلى أن هلك هناك وتخلّف من الولد أربعة، فقدّم البربر ابنه صالحا منهم. قال زَمّور: وكان مولد صالح بعد موت النبي (صلى الله عليه وسلم) بمائة عام سواء. قال: وحضر صالح مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير. قال: وكان من أهل العلم والخير فتنبأ فيهم وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم، وادّعى أنّه نزل عليه قرآنهم الذي يقرءونه إلى اليوم. قال زَمّور: وهو صالح المؤمن الذي ذكره الله عزّ وجلّ في قرآن محمّد (صلى الله عليه وسلم) في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته وعلمه شرائعه وفقهه في دينه وأمره ألا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن، فإنّه يدعو حينئذ إلى ملّته ويقتل من خلفه. وأمره بموالاتة أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق ووعد أنّه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنّه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال، وأنّ عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه، وأنّه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، وتكلّم لهم في ذلك كلاما كثيرا نسبه إلى موسى الكليم عليه السلام وإلى سطيح الكاهن وإلى ابن عبّاس. وزعم أنّ اسمه في العربي صالح وفي السرياني مالك وفي الأعجمي عالم وفي العبراني وربيا وفي البربرية ورياوري، أي الذي ليس بعده شيء. وتولّى ألياس الأمر بعد خروج أبيه يظهر ديانة الإسلام ويسرّ الذي عهد إليه به أبوه خوفا وتقية، وكان طاهرا عفيفا لم يلتبس بشيء من الدنيا إلى أن هلك بعد أن ملك خمسين سنة. وولد ألياس جماعة منهم يونس، فتولّى الأمر بعد أبيه فأظهر ديانتهم ودعا إليها وقتل من لم يدخل فيها حتّى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة، حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إيّاه وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكاف، وهو حجر نابت عالي وسط السوق، سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلًا، وقتل

من صنهاجة خاصّة في وقعة واحدة ألف وغد، والوغد عندهم المنفرد الوحيد الذي لا أخ له ولا ابن عمّ، وذلك في البربر قليل وإنّما أحصوا الأقلّ ليستدلّ به على الأعظم الأكثر. قال زَمُور: ورحل يونس إلى المشرق وحجّ ولم يحجّ أحد من أهل بيته قبله ولا بعده. ومات يونس بن الياس بعد أن ملك أربعاً وأربعين سنة. وانتقل الأمر عن بنيه بقيام أبي غفير يحمّد بن معاد بن أليسع بن صالح بن طريف عليهم، فاستولى على الملك) ودان بدين آبائه واشتدّت شوكته وعظم أمره، وكانت له وقائع كثيرة في البربر مشهورة لا تنسى مع الأيام، منها وقعة تيمغسن، وكانت مدينة عظيمة، أقام القتل في أهلها ثمانية أيّام من الخميس إلى الخميس، حتّى شرقت دورهم ورحابهم وسككهم بدمائهم، ومنها وقعة بموضع يقال له بهت عجز الإحصاء عن عدد من قتل فيها. وكانت لأبي غفير من الزوجات أربع وأربعون زوجة كان له منهنّ من الولد بعددهنّ. ومات أبو غفير بعد أن ملك تسعا وعشرين سنة، وذلك عند ثلاثمائة من الهجرة. وولي الأمر بعده من بنيه عبد الله أبو الأنصار، وكان سخياً ظريفاً يفي بالوعد والعهد ويحفظ الجار ويكافي على الهدية بأضعافها، وكان أفطس شديد أدمة الوجه ناصع بياض الجسم طويل اللحية، وكان يلبس السراويل والملحفة ولا يلبس القميص، ولا يعتّم إلّا في الحرب ولا يعتّم أحد في بلده إلّا الغرباء، وكان يجمع جنده وحشمه في كلّ عام ويظهر أنّه يغزو من حوله، فتهاديه القبائل وتستألفه، فإذا استوعب هداياهم وألطفهم فترق أصحابه وسكنت حركته. فملك في دعة اثنتين وأربعين سنة ودفن بأمسلاخت وبها قبره. وولي بعده من بنيه ابنه أبو منصور عيسى بن أبي غفير، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، فسار بسيرة آبائه ودان بديانتهم واشتدّت شوكته وعظم سلطانه. وكان أبوه قد وصّاه قبل موته بموالاة صاحب الأندلس، (وكذلك يوصّي جميعهم المرشّح للملك بعده. قال زَمُور): وقال له: يا بنيّ أنت سابع الأمراء من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك صالح بن طريف كما وعد. انتهى كلام زَمُور. وقال أبو العبّاس فضل بن مفضّل بن عمرو المدحجي: إنّ يونس القائم بدين برغواطة أصله من شدونة من وادي بربط، وكان قد رحل إلى المشرق في عام واحد مع عبّاس بن ناصح وزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية وبرغوت بن سعيد التراري وجدّ بني عبد الرزّاق ويعرفون ببني وكيل الصفرية، ومناد صاحب المنادية المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة وآخر ذهب عتيّ اسمه. فأربعة منهم فقهوا في الدّين وادّعى ثلاثة منهم النبوّة، منهم يونس صاحب برغواطة. قال: وكان يونس شرب دواء الحفظ فلحق كلّ ما سمع حفظه، وطلب علم النجوم والكهانة والجانّ ونظر في الكلام والجدال، وأخذ ذلك من غيلان. ثمّ انصرف يريد الأندلس، فنزل بين هؤلاء القوم من زناتة، فلمّا رأى جهلهم استوطن ببلدهم، وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها ممّا تدلّ عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول أو قريبا منه، فعظم عندهم. فلمّا رأى ذلك منهم وعرف ضعف حلومهم وسخافة «1» عقولهم أظهر ديانته ودعا إلى نبوّته، وسمّى من

أتبعه بربطي «2» لما كان من بربط، ثم أحالوه بألسنتهم وردّوه إلى لغتهم فقالوا: برغواطي.  
قال فضل بن مفضل: وقال سعيد بن هشام المصمودي في وقعة بهت قصيدة طويلة اخترنا  
منها أبياتا [وافر]:

وقولي واخبري خبرا مبينا	قفي قبل التفرق فاخبرينا
وخابوا لا سقوا ماء معينا	هموم برابر خسروا وضلّوا
وزاغت عن سبيل المسلمينا	أليم أمة هلكت وضلّت
فأخزي الله أم الكاذبينا	يقولون التّبيّ أبو غفير
على آثار خيلهم رنينا	ألم تسمع ولم تريوم بهت
وعاوية ومسقطة جنينا	رنين الباقيات فبين ثكلى
أتوا يوم النّشور مهيميننا	سيعلم قوم تامسنى إذا ما
يقودون البرابر مهطعينا	هناك يونس وبنو أبيه
جهنّم قائد المستكبرينا	إذا ورياورى زمت عليه
ليالي كنتم متمسرينا	فليس اليوم ردّتكم ولكن

هذا البيت يصدّق قول زَمور البرغواطي أنّ طريفا كان من أصحاب ميسرة ويشهد له. وأمّا هذا الضلال الذي شرع لهم فإنّهم يقدمون مع الإقرار بالنبين الإقرار بنبوة صالح بن طريف ونبوة من تولّى الأمر بعده من ولده، وأن الكلام الذي ألف لهم وحى من الله تعالى لا يشكّون فيه، تعالى الله عن ذلك، وصوم رجب وأكل شهر رمضان وخمس صلوات في اليوم (وخمس صلوات في الليلة) والتضحية في اليوم الحادي عشر من المحرّم، وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسل الوجه ومسح العنق والقفا وغسل الذراعين من المنكبين ومسح الرأس ثلاث مرّات ومسح الأذنين كذلك ثم غسل الرجلين من الركبتين. وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود وبعضها على كيفية صلاة المسلمين. وهم يسجدون ثلاث سجدات متّصلة ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر، وإحرامهم أن يضع إحدى يديه على الأخرى ويقول: ابسمن ياكش، تفسيره بسم الله، مقرّ ياكش، تفسيره الكبير الله، ويضعون أيديهم مبسوطة في الأرض طول ما يتشّهّدون ويقراءون نصف قرآنهم في وقوفهم ونصفه في ركوعهم، ويقولون في تسليمهم بالبربرية: الله فوقنا لم يغب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ثم يقول مقرّ ياكش خمسا وعشرين مرّة، إحن ياكش مثل ذلك ومعناه: الواحد الله، وردام ياكش مثل ذلك ومعناه: لا أحد مثل الله. وهم يجمعون يوم الخميس ضحى، وصيام يوم من كلّ جمعة فرض من فروضهم ويصوم الجمعة الأخرى التي تليه أبدا. ويأخذون العشر من الزكاة من جميع الحبوب ولا يأخذون من المسلمين شيئا. ويتزوّج من النساء ما استطاع على مباعلتهنّ والإنفاق عليهنّ بلا حدّ عدد. وأن لا يتزوج من

بنات عمّه إلا ثلاث جدود، ولا يتسرّون ولا ينكحون للمسلمين ولا ينكحون فيهم ويطلقون ويراجعون ما أحبّوا. ويقتل السارق بالإقرار أو بالبينة ويرجم في الزنا عندهم وينفى الكاذب ويسمّونه المغيّر. والدية عندهم مائة من البقر. ورأس كلّ حيوان عليهم حرام، والحوت لا يؤكل إلا أن يذكي والبيض عندهم حرام والدجاج مكروهة إلا أن يضطرّ إليها. وليس عندهم أذان ولا إقامة وهم يكتفون في معرفة الأوقات بزقاء الديوك ولذلك حرّموها. وكان يبصق في أيديهم فيلعقونه تبرّكا به ويحملون بصاقه إلى مرضاهم يستشفون به. وصار أهل برغواطة أعلم الناس بالنجوم وأحذقهم بالقضاء بها. وكانوا أجمل الناس رجالا ونساء وأشدّهم أيدا، كانت الجارية البكر منهنّ تثب ثلاث حمر مصطفة ولا يمسّ ثوبها شيئا من الحمر، ولا تقدر على ذلك ثيب.

وقرّانهم الذي وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين من لدن آدم، أولها سورة أيّوب وآخرها سورة يونس وفيها سورة فرعون وسورة قارون وسورة هامان وسورة ياجوج وماجوج وسورة الدجال وسورة العجل وسورة (هاروت وماروت وسورة طالوت وسورة نمرود وما أشبه هذه من الأقايص وسورة الديك وسورة) الحجل وسورة الجراد وسورة الجمل وسورة الحنش؛ وكان يمشي على ثماني أرجل، وفيها سورة غرائب الدنيا، وهناك العلم العظيم عندهم. ذكر كلمات مترجمة من أول سورة أيّوب وهي استفتاح كتابهم باسم الله الذي أرسل الله به كتابه إلى الناس، هو الذي بيّن لهم به أخباره. قالوا: علم إبليس القضية، أبي الله ليس يطيق إبليس (أن يعلم) كما يعلم الله. سل أيّ شيء يغلب الألسن في الأقولة، ليس يغلب الألسن (في الأقولة إلا الله) بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحقّ إلى الناس استقام الحقّ. انظر محمّدا. وعبارة ذلك بلسانهم أيمنى مامت فمامت محمّد. كان حين عاش استقام الناس كلّهم الذين صحبوه حتّى مات، ففسد الناس. كذب من يقول إنّ الحقّ يستقيم وليس ثمّ رسول الله. وهي سورة طويلة. قال زمّور: إنّ بني صالح بن طريف يركبون وقت أخباره في ثلاثة آلاف ومائتي فارس وإنّ قبائل برغواطة الذين يدينون لهم وهم على ملّتهم جراوة وزواغة والبرانس (وبنو أبي ناصر ومنجصة وبنو أبي نوح وبنو واغمر ومطغرة وبنو بورغ) وبنو دمّر ومطماطة وبنو وزكسينت، وعددهم ينتهي أكثر من عشرة آلاف فارس. وممّن يدين لهم من المسلمين وينضاف إلى مملكتهم زناتة الجبل وبنو يليت ونمالتة وبنو واوسينت وبنو يفرن وبنو ناغيت وبنو النعمان وبنو أفلوسة وبنو كونة وبنو يسكر وأصادة وركانة وإيزمين ومنادة وماسينة ورسانة وترارته، ومبلغ عددهم نحو اثني عشر ألف فارس. قال زمّور: وليس في عسكرهم طبول ولا بنود. وعدّ زمّور من (أنهار بلادهم الجارية) أزيد من مائة نهر أعظمها نهر ماسنات، وهو يجري من القبلة إلى الجوف، وبين

عنصره وموقعه في البحر مسيرة ستّة أيّام، ونهر وانسيفن يقع في نهر شلة تحت الرباط في البحر المحيط."

جهة واحدة، يسلكه الرجل بعد الرجل، وهي نخبة رفة كثيرة أخير،  
 ٣٤ - ومجيرة آزيغ مجيرة أصلها من البحر المحيط صنيورة تسمى فيها  
 المراكب الإندلسية التي تحمل غلات الناحية، وفيها يركب أهل البصرة  
 ويشحنون من لواحيهم وناحية بلد بيانه. ومنها عن مرحلة الى جهة  
 الجنوب مصب وادي سبته وهو وادي فاس، ومن ورائه الى ناحية  
 برغواطه على نحو بريد وادي سته واليه ينتمي سكنى المسلمين.

٣٥ - وببلد رباط يواظ فيه المسلمون. وعليه المدينة الأزلية  
 المعروفة بسله القديمة وقد تحربت. والناس يسكنون ويواظون برباطات  
 تحمها، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان  
 يزيدون في وقت وينقصون لوقت، وروباطهم على برغواطه من قبائل  
 البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي سميت عمارة بلد الاسلام  
 اليها بغزون وبسبون. وذلك أن رجلاً كان يعرف بصالح بن عبدالله  
 دخل العراق ودرس شيئاً من النجوم وصلت منزلته في علمها، الى أن  
 قوّم الكواكب وعمل التقويم والموايد واطاب في أكثر أحكامه. وكان  
 له خط حسن وفهم باطراف من العلم وعاد فنزل بينهم، وكان يروي  
 الأصل مغربي المولد مضطرباً بلغة البربر، يفهم غير إنسان من ألسنتهم  
 فدعاهم الى الايمان به وذكر أنه نبي ورسول مبعوث اليهم بلغتهم واحتج  
 بقول الله تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» وأن محمداً  
 ﷺ نبي حق عربي اللسان مبعوث الى قومه والى العرب خاصة، وأنه  
 صادق فيما اتى به من القرآن والأحكام، وإياه اراد الله عز وجل بقوله:  
 «وصالح المؤمنين والمؤمنات بعد ذلك ظهير» ووعدهم غير كسوف  
 فوجدوه وأنذرهم غير شيء فادركوه واحصوه على حكايتهم، فافسد  
 عقولهم وبدل معارفهم واخترض عليهم طاعته في سنين ابتدعها واحوال  
 فرضها واخترعها، واوجب عليهم صوم شعبان وانظار شهر رمضان، وعمل  
 لهم كلاماً وثله بلغتهم وشرع فيه محابته على نحلتهم فهم يتدارسونه ويعظمونه  
 ويصلون به، وهالك فضله وصي كان له اقامه يُكنى ابا العفير فزاد فيما  
 وسهه أشياء ذكر أن له فيها الزيادة والنقصان والحل والعقد. فيما قدمه

صالح لهم من الأحوال ، فدعاهم إلى التمسك وترك الدنيا والاقبال على التقلان والزهد ، وتناهى هو وخاصته في ذلك إلى أن حفيظاً عليه تصبره عن الغذاء حثماً عن الدهر وسبباً وتُسبغاً ، وهو في جميع ذلك يذكر أنه يوحى إليه وأن الملائكة تأتيه بما يأمرهم به وينهاهم عنه . وكان صالح يحل لهم الطيبات ويبيحههم اللذات ويسوسهم في المظهورات ، وفيهم الآن من يقرأ القرآن بزيادة الاحترام ويحفظ منه السور ويتأول آياته على موافقته لكتابتهم وقرآنتهم . وكان أهل البصرة ومدينة قاس يغزونهم في بعض الاوقات ويسامونهم ويتاجرونهم ، ويجلبون اليهم التجارات على ما يرونه ولائهم . وفي برغواطه امانة وبذل للطعام وتجنب البصبات من الحرام والمظهورات من الاثم ، وقد يصل اليهم أهل آفحات والسوس ايضاً بالتجارة ، وكذلك قوم من أهل سجلماسة وبلدهم بلد مستقل بنفسه عن الحاجة اى ما في غيره وفيهم جمال باوع وشدة وبأس وصبر على القلاء والمراس . وكنت ألفت محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله بسجلماسه يدعو اى غزوه في سنة اربعين وقلناثة ، وأظنه هلك ولم يبلغ منهم خبره لقلته لجباية من حكان يدعوه الى غزوه من البربر ، وتخوفهم من اطراد صيلة لمحمد بن الفتح الشاكر لله عليهم في ذلك .

٣٦ - وهذه جملة أحوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المعروفة على نحو بحر المغرب من حد بركة الى البحر المحيط ، مما انتهت إليه وأدرسته بالعيان او اخذته ممن نشأ فيه . وليس من حد بركة وأعماله الى نواحي افريقية فيما يواجه البحر المغربي من البر غير عشر مراحل فما فوقها بلد يُذكر ولا يُعرف إلا ما ذكرته ، والغالب على ما واجه هذا البحر من ارض مصر الى نواحي عمل افريقية البراري والمقاوز التي بين بلاد السودان وأرض المغرب . وفي أطرافها سُكَّان من البربر وفي قلب البر أيضاً مياه عليها قوم منهم . وأما ما حاذى ارض افريقية الى آخر أعمال طنجة عن مرحلة الى عشر مراحل ، فزائد ونقص في بلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه ، والولاة والسلاطين والمنوك والحكام والفقهاء ، وكل ذلك في جملة صاحب المغرب وحوزته وقبضته أو في يد

ابن حوقل ، صورة الأرض ، مكتبة دار الحياة ، بيروت ، 1992.

## ديانة حاميم الغماري عن البكري

" ويجاور بلد نكور بلد غمارة فمنه مكسة. وتتباً بذلك الصقع أبو محمّد حاميم بن منّ الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال (بن وزروال) الملقّب بالمفتري. وبلد مكسة جبل حاميم المنسوب إليه، وهو على مقربة من مدينة تيطاوان. وأجابه بشر كثير أقرّوا بنبوّته، وجعل لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها يسجدون على بطون أكفّهم، ووضع لهم قرآنا بلسانهم، فمما ترجم منه بعد تهليل يهلّلونه: حلّني من الذنوب يا من يحلّ البصر ينظر في الدنيا، حلّني من الذنوب يا من أخرج موسى من البحر. ومنه: آمنت بحاميم وبأبي خلف- يريدون أبا حاميم وكذلك كان يكتّى- وأمن رأسي وعقلي وما أكّته صدري وما أحاط به دمي ولحمي، وآمنت بتانفيت، وهي عمّة حاميم أخت أبي خلف (منّ الله) وكانت كاهنة ساحرة، (وكانت لحاميم أيضا أخت تسمى دجو وكانت ساحرة كاهنة) من أجمل الناس وكانوا يستغيثون إليها في كلّ حرب وضيق ويزعمون أنّهم يجدون نفعها. وفرض عليهم صوم (الخميس كلّه ويوم الأربعاء إلى الظهر، فمن أكل فيهما غرم خمسة أثار لحاميم. ووضع لجمعهم صوم) سبعة وعشرين يوما من رمضان وأبقى فرض صوم ثلاثة أيّام ويوم الفطر الرابع وجعل عيدهم في الثاني من الفطر. وفرض زكّاتهم العشر من كلّ شيء وأسقط عنهم الحجّ والطهر والوضوء وأحلّ لهم أكل أنثى الخنازير وقال إنّما حرم ذكورها، وذلك في قرآن محمّد -صلى الله عليه وسلم-. وحرمّ عليهم الحوت حتّى يذكّي وحرمّ عليهم البيض من جميع الطير."

وفي سنة ٣٢٥ ادعى رجل النبوة بجبال غمارة والديانة التي شرع لهم صلاتان بالنهار الواحدة عند طلوع الشمس والثانية عند غروبها ، ثلاث ركعات في كل صلاة ، ويسجدون ويطون أيديهم تحت وجوههم ، وصنع لهم قرآنا يقرؤونه بلسانهم بعد تهليل يهللون به وهو : «خلني (26) من الذنوب يا من خلا البصر ينظر في الدنيا أخرجني من الذنوب يا من أخرج موسى من البحر» ، ثم يقول في ركوعه : «أمنت بحميم وبأبي يخلف صاحبه وأمنت بتاليت عمه حم» ، ثم يسجد ، وكانت تاليت هذه كاهنة ، وفرض عليهم صوم يوم الاثنين ويوم الخميس الى الظهر وصوم يوم الجمعة وصوم عشرة أيام من شهر رمضان ويومين من شوال ومن أفطر في يوم الخميس عمدا فكفارته أن يتصدق بثلاثة عروض من البقر ومن أفطر في يوم الاثنين فكفارته ثوران ، وفرض عليهم الزكاة العشر من كل شيء وأسقط عنهم الوضوء والطهر من الجنابة وأسقط عنهم الحج وأحل لهم اكل أنثى الخنزير وقال : «انما حرم في قرآن محمد الذكر خاصة» ، وجعل الحوت لا يؤكل الا بنكاة وحرم عليهم اكل البيض واكل رؤوس جميع الحيوان ، فاتصل / (بالناصر) خبره وما أضل من الناس فبعث اليه جيشا (عظيما) فالتقوا معه بقصر مصمودة فهزم حميم وقتل وبعث برأسه الى قرطبة ورجع تبعه الى الاسلام .

مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، تحقيق لويس مولينا، مدريد، 1983، ص.167.

## خطاطة ملوك برغواطة

طريف (122-127هـ)

صالح (127-174هـ)

إلياس (174-224هـ)

يونس (224-268هـ)

أبو عفير (268-297هـ)

أبو الأنصار (297-341هـ)

أبو منصور عيسى (341-389هـ)

## إمارة الأدارسة

### مقدمة

قامت الدولة الإدريسية في شمال المغرب في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري في وقت كانت فيه البلاد منقسمة بين إمارات وتجمعات قبلية عديدة، وعرفت حضور مذاهب متعددة، كما كانت ملجأ المطرودين والمغامرين من الذين لفظهم المشرق. وكان إدريس الأول واحدا من الذين خرجوا من الحجاز فرارا من العباسيين فوجد في المغرب من استقبله وساعده على تأسيس إمارة جديدة تحقق طموحات الطرفين. وقد نجح الأدارسة في ضم معظم أراضي المغرب؛ على الأقل، تحت غطاء حضاري متشابه مما أعطاهم طابعا مشتركا أو متشابهها، بالرغم من عدم وجود وحدة سياسية في معظم الأوقات. وقد مرت الدولة الإدريسية بمراحل ثلاث تشكلت خلالها شخصيتها ومعها شخصية المغرب الحضارية مما جعل الكثيرين يعتبرونها مؤسسة للدولة المغربية. وسنتناول الموضوع من خلال النقاط التالية:

#### 1- التطور السياسي للأدارسة

##### 1-1-1- طور التأسيس

##### 1-2-1- طور الانقسام والاستقرار

##### 1-3-1- طور المنفى والتبعية

#### 2- ملاحظات حول الإنجازات الحضارية للأدارسة

### خاتمة

#### 1- التطور السياسي للأدارسة

##### 1-1-1- طور التأسيس والقوة

تحول العلويون إلى المعارضة السياسية بعد مقتل علي وتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان مكرها، وواصلوا النضال بإصرار لاستعادة حقهم في الخلافة بالنقاش والجدال والعمل السياسي ولكن أيضا بالسلاح. وتوالت ثوراتهم على الأمويين (الحسين بن علي في 61هـ- زيد بن علي في 122هـ). وعندما قامت الدعوة العباسية اعتقد الكثيرون ومنهم العلويون أنها تدعو لآل علي، لكن نجاحها كشف أنها كانت تعمل لصالح بني عمهم من أبناء العباس. لذلك واصل آل علي المعارضة ودخلوا في مواجهة سياسية وعسكرية مع العباسيين دشنها محمد النفس الزكية عام 145هـ فقتل وأخاه إبراهيم، وأعقبها تضيق على

آل البيت وفرض الإقامة الجبرية على وجوههم مما زاد من غضبهم وإصرارهم على المقاومة. وفي عام 169هـ؛ وعلى إثر خلاف مع عامل المدينة، ثار الحسين بن علي بن الحسن بن حسن بن علي ومعه كل آل البيت وشارك في الثورة إدريس بن عبد الله وأخوه يحي فأسفرت المواجهة في معركة فح عن هزيمة العلويين وقتل زعاماتهم ومطاردة الباقين مما اضطرهم إلى الفرار. وممن فروا إدريس وأخوه فقصد الأول المغرب والثاني بلاد فارس.

نجح إدريس بن عبد الله في الوصول إلى المغرب بعد مغامرات خطيرة عبر مصر وإفريقية مرفوقا بمولاه راشد. ووصل إلى منطقة ويلي حيث قبيلة أوربة الزناتية التي يتزعمها إسحاق بن عبد الحميد الأوربي الذي قيل إنه كان معتزلي المذهب. وبعد مفاوضات قبلت القبيلة بتبني قضية إدريس ومساعدته على استرجاع حقه المغتصب فبايعته أميرا. وقد استفاد د؛ دون شك، من التقليد الذي صار للمغاربة في تعيين الأجانب المشاركة على رأس إماراتهم (بنو رستم- الأمويون- برغواطة- بنو صالح). وبويع إدريس إماما في رمضان 172هـ من طرف قبائل أوربة وزناتة وزواغة ولماية ولواتة وسدراته وغيثة ونفزة ومكناسة وغمارة...

بدأ إدريس عمله التنظيمي فاتخذ راشد وإسحاق الأوربي وزيرين ومستشارين واستعان بباقي شيوخ القبائل، وكون جيشا قبليا من القبائل المبايعة. وبسرعة انطلق في العمل العسكري ونظم حملتين سنتي 173هـ وثالثة في السنة الموالية، واتجهت في اتجاهات أربع شرقا نحو تازة وتلمسان وشمالا نحو الريف وجنوبا نحو جبال فازاز (الأطلس المتوسط) وغربا نحو تامسنا، وتمكن من اقتطاع مجال وخلق إمارة شملت شمال المغرب. ويلاحظ أن توسعته اتجهت نحو المحاور الطرقية الرئيسية والمناطق الفلاحية الغنية (سايس- تادلة- تامسنا) وبعض المناجم (منجم نحاس ناحية تازة).

وفي الوقت الذي كان إدريس يستعد للتوسع أكثر تحركت مخاوف العباسيين فتآمروا لقتله، فأرسلوا جاسوسا لهم يسمى سليمان بن جرير الشماخ فحل ضيفا على إدريس، فأظهر حبا كبيرا لآل البيت ودافع عنهم أمام الجموع، فأقنع إدريس بمحبته ومساندته فقربه منه. فاستغل سليمان الفرصة ليقتله بالسم في عطر أو سنون ويفر إلى المشرق بعد فشل راشد في قتله سنة 177هـ. ولم يترك إدريس ابنا، لكنه ترك زوجه كنزة حاملا، فاتفق زعماء القبائل على انتظار وضعها فإن وضعت ولدا ربوه ثم بايعوه وإن كان أنثى نظروا لأنفسهم. فلما وضعت كنزة كان الذكر فسمي باسم أبيه، فرباه راشد وبعده أبو خالد يزيد بن إلياس العبدى بعد 186هـ.

لما بلغ إدريس الثاني الحادية عشر من العمر بويع سنة 187هـ. ويظهر أن حاشية إدريس شهدت قدوم عناصر عربية من الأندلس والمشرق (قيسية- أزد- خزرج- مدلج- يحصب)

فقربها واتخذها حاشية على حساب البربر. وهكذا اتخذ مصعب بن عمير الأزدي (الملجوم) وزيراً وخلق حرساً من فرسان العرب. وقد يكون هذا الانقلاب وراء تغير علاقته بالبربر فقتل إسحاق الأوربي عام 192 هـ وفر منه وزيره بهلول بن عبد الواحد المطغري إلى ابن الأغلب بالقيروان.

توجهت أعمال إدريس الثاني في نفس اتجاه أعمال والده لكنها كانت أكثر عمقا. ففي سنة 197 هـ غزا نفيس وأغمات وضمهما، وفي سنة 199 هـ استعاد تلمسان، وربما وصل إلى درعة وسجلماسة وسوس (تمدولت بناها أحد أحفاده- نقود إدريسية سكت بتدغة). وهكذا صارت دولة الأدارسة تضم كل أراضي المغرب عدا تامسنا وسجلماسة ونكور. ومرت أخرى تحركت مؤامرات العباسيين على يد خليفتهم على إفريقية ابن الأغلب لتغتاله عام 213 هـ/828 م. وبذلك انتهى الطور الأول؛ طور التكوين والقوة، بمغرب موحد، فهل سيبقى كذلك في ظل الخلفاء؟

## 2-1 – طور النمو والازدهار الحضاري (213-309 هـ/828-321 م)

مات إدريس الثاني وترك خلفه إثنا عشر ولدا أكبرهم محمد فلجاً الإخوة الكبار إلى تقسيم الدولة فيما بينهم بناء على نصيحة جدتهم كنزة على أن يبقى محمد الإمام ويستقر في فاس. وقد كانت نتيجة التقسيم:

- القاسم: سبتة وطنجة ووقلعة حجر النسر والبصرة وتطوان.
- عمر: بلاد صنهاجة والهبط وغمارة.
- داود: بلاد هوارة وتسول وتازة.
- عبد الله: أغمات وبلاد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى.
- يحيى: أصيلا والعرائش وبلاد زواغة.
- عيسى: شالة وسلا وأزمور وتامسنا.
- أحمد: مكناسة وتادلا وفازان.
- سليمان بن عبد الله ابن عمهم: تلمسان.

احتفظ محمد بالإمامة وكان على الإخوة أن يأتروا بأمره. لكن الأحداث تطورت بشكل مختلف، ذلك أن الإخوة كانوا يتصرفون كأنداد لأخيه وأصحاب حق في الإمامة واستغلتهم الزعامات المحلية لتحقيق طموحاتها. وسرعان ما تمرد عيسى والقاسم فتدخل عمر بأمر أخيه لتأديبهما وإخضاعهما، وإذا كان قد نجح في مهمته وضم أراضيها، فإن ذلك كان فقط

مقدمة لثورات وانشقاقات بين أبناء البيت الإدريسي مما زاد من تفكك الدولة وضعفها سياسيا.

توفي محمد عام 221هـ وخلفه ابنه الطفل علي تحت الوصاية ثم انتقل الحكم إلى أخيه يحي عام 234هـ وخلفه ولده يحي بن يحي الكثير المجون، فثارت عليه العامة في فاس فطردته ليموت كمدا وأسفا. فانتقلت الإمامة إلى فرع عمر بن إدريس في شخص علي بن عمر واضطر تحت ضغط الثائر عبد الرزاق الفهري الخارجي إلى ترك العاصمة فاس واللجوء إلى أوربة. فاستدعى السكان يحي بن القاسم العدم وباعوه حتى وفاته عام 292هـ، فعادت الإمامة إلى فرع عمر في شخص يحي بن إدريس بن عمر، فساعده حزمه وعلمه على إعادة السيطرة على أراضي الدولة حتى مجيء مصالة بن حبوس القائد الفاطمي.

انهزم يحي بن إدريس أمام مصالة واضطر إلى بيعته والاحتفاظ بحكم مدينة فاس، بينما عين موسى بن أبي العافية المكناسي على باقي المغرب. وفي عام 309هـ، عاد مصالة فقبض على يحي ونفاه مع أسرته الكبيرة إلى أصيلا. ولم تفلح محاولات الأدارسة في استعادة سلطانهم لأن ابن أبي العافية أحكم سيطرته على البلاد وضيق عليهم وطاردهم. فأنتهى عهد الأدارسة في فاس.

إذا كانت هذه المرحلة مليئة بالصراعات السياسية فقد عرفت ازدهارا اقتصاديا واجتماعيا انعكس على حياة الناس كما يثبت هذا النص لابن أبي زرع:

"وفي أيامه [يحي بن محمد بن إدريس] كثرت العمارة بفاس، وقصد إليه الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب، فضاقت بسكانها، فبنى الناس الأرباض بخارجها وبنى الأمير يحي بها الحمامات والفنادق للتجار وغيرهم" (الأنيس ص.53-54).

وعرفت الأنشطة الفلاحية بدورها تزايدا كبيرا، كما نشطت التجارة مع الجيران خاصة تامسنا وتاهرت وسجلماسة والسودان والأندلس.

### 1-3- طور النفي والتبعية (309-375هـ/921-385م)

خلال هذه المرحلة تجمع الأدارسة في نقطتين رئيسيتين هما حجر النسر قرب طنجة كمركز رئيسي ومدينة البصرة، وانقسموا إلى فرعين متنافسين آل محمد وآل عمر. وتقلبوا في ولائهم بين القوتين المتنافستين على المغرب وهم الأمويون في الأندلس والفاطميون في مصر سالكين طريقا انتهازيا مما عرضهم غير ما مرة للعقاب. وبعد فترة خفوت كبير أحيى القاسم بن محمد بن القاسم جنون (ت337هـ) الإمارة بعد وفاة ابن أبي العافية وحالف الفاطميين. وخلفه أبو العيش أحمد بن القاسم (ت348هـ) وحالف الأمويين ووسع نفوذ الأدارسة.

وخلفه أخوه الحسن كنون وتعاون مع جوهر الصقلي الذي اجتاحت المغرب، فأغضب الأمويين فحاربوه وأجبروه على الاستسلام عام 363هـ فنقل إلى قرطبة في حفاوة وهدمت حجر النسر. وبعد سنتين نفي إلى إفريقية فالتحق بالعبيدي نزار بن محمد بالقاهرة، فقرر مساعدته على استعادته حكمه بتكليف آل زييري بذلك. واجتاحت المغرب عام 374هـ ودخل فاس وضم مناطق واسعة، لكن المنصور بن أبي عامر الحاجب الأموي تدخل فهزمه وقتله في السنة الموالية واضعاً نهاية للدولة الإدريسية بالمغرب.

## 2- ملاحظات حول إنجازات الأدارسة

### 2-1- الإدارة والجيش

اتخذ الأدارسة لقب الإمام ولم يتلقبوا قط بالخلفاء ولم ينازعوا العباسيين الخلافة، كما أن مهمتهم ظلت دينية بالأساس وتحكيمية بين القبائل، حيث نظر إلى وجودهم كوجود ديني لقيادة الصلاة والفصل في النزاعات كما تؤكد؛ على الأقل، رسالة شكوى وجهها أحد الأمراء إلى الناصر الأموي في القرن 4هـ/10م.

بدأ التنظيم الإداري في عهد المؤسس بسيطاً، حيث كان يسير شؤون الدولة مجلس أشبه ما يكون بمجلس القبيلة يقوده إدريس ويساعده راشد وإسحاق الأوربي وشيوخ القبائل. ويتكلف بكل المهام السياسية والعسكرية والقضائية والمالية. وفي عهد إدريس الثاني تطورت الإدارة أكثر؛ بالرغم من استمرار بساطتها، وأصبحت أكثر اتساعاً ومن عناصرها:

- الوزير: عمير بن مصعب الأزدي الملجوم وبهلول بن عبد الواحد المطغري
- قاضي: عامر بن محمد القيسي
- كاتب: أبو الحسن بن عبد الملك

ويتبع الإدارة الجيش الذي بدأ قبلياً في عهد المؤسس وفي عهد إدريس الثاني ضم فرساناً عرباً.

### 2-2- العاصمة:

اشتهر الأدارسة بميلهم نحو التعمير وبناء المدن، حيث بنوا عدداً منها مثل البصرة وأصيلا وحجر النسر وتامدولت وفاس غيرها، لكنها وللأسف اختفت واندثرت عدا فاس العاصمة. وقد طرح تأسيسها إشكالا كبيراً، حيث كان يعتقد أن إدريس الثاني هو الذي بناها سنتي 192 و 193هـ، إلى أن اخرج العلامة ليفي بروفنصال مقالا أثبت فيه أن إدريس الأول بنى عدوة الأندلس سنة 172هـ، بينما بنى الثاني عدوة القرويين عام 193هـ (الإسلام في المغرب

والأندلس، ترجمة عبد العزيز السالم ومحمد صلاح حلي القاهرة، 1958، ص.1-50)، وأهم أدلته:

- درهمان ضربا بفاس سنتي 185 و 189هـ.
- نصوص تثبت سنة 172 تاريخا للبناء للرازي وابن سعيد والعمري والقلقشندي ومؤرخ غرناطي مجهول من القرن 8هـ.

وتمدنت المدينة وتوسعت وزادت منشآتها وأرباضها فيما بعد، وظلت عاصمة للأدارة حتى 309هـ عندما أخرجهم منها مصالة بن حبوس الفاطمي وانتقلوا إلى حجر النسر.

## 2-3- نشر الإسلام

ننطلق من نصين لابن أبي زرع في كتاب "الأنيس المطرب" يقولان:

"فخرج غازيا إلى بلاد تامسنا، فنزل أولا مدينة شالة ففتحها ثم فتح بعدها سائر بلاد تامسنا، ثم سار إلى بلاد تادلة ففتح معاقلها وحصونها، وكان أكث هذه البلاد على دين النصرانية ودين اليهودية والإسلام بها قليل، فأسلم جميعهم على يديه" (ص.20)

"ثم خرج برسم غزو من بقي بالمغرب من البربر على دين النصرانية واليهودية والمجوسية، وكان قد بقي منهم بقية متحصنون بالمعاقل والجبال والحصون المنيعة، فلم يزل الإمام إدريس يجاهدهم ويستزلهم حتى دخلوا في الإسلام طوعا وكرها (...). وأباد من أبي الإسلام منهم بالقتل والسبي" (ص.21).

يظهر من النصين أن إدريس الأول وبعده ابنه كانا منشغلين بنشر الإسلام بالمغرب، وبغض النظر عن المبالغة التي يحملها النصان ففيهما جزء من الحقيقة ما دمنا قد عرفنا في سابق المحاضرات أن الإسلام لم يعم كل البلاد في زمان الفتح. ولكن سؤالا يطرح وهو: ألا يمكن أن تكون ثورات الخوارج قد عممت هذا المذهب وأن الأدارة إنما كانوا يحاربون هذه النحلة ولا ينشرون الإسلام لأول مرة؟ وهذا سؤال يجد شرعيته في الأحداث التي عرفت المنطقة قبل وصولهم للحكم ووجود مذاهب مختلفة من خوارج وشيعة ومعتزلة بالبلاد. وهذا ينقلنا إلى طرح السؤال حول مذهب الأدارة هل هو شيعي أو سني؟ لا تتوفر على معطيات تحدد مذهبهم، لكن بعض الآراء تتكلم عن تبنيهم المذهب الشيعي الزيدي القريب من السنة والمعتزلة لذلك وقع التوافق بين إدريس وإسحاق الأوربي المعتزلي. وعلى كل فالمصادر لا تشير إلى اهتمام الأدارة بنشر هذا المذهب وكل ما هناك هو حرصهم على التذكير بنسبهم الشريف وحقهم في الحكم. أما يتعلق بشأن محاربة المذاهب الأخرى فلدينا إشارة من نفس المصدر تقول على لسان داود بن القاسم الأوربي أحد أتباع إدريس الثاني: "شهدت مع إدريس بن إدريس بعض غزواته للخوارج الصفرية من البربر" (ص.26)، واستخدام صيغة الجمع في الغزو

يشير إلى تعدد الغزوات ضد بقايا الصفرية، ولكن أي منهم؟ خوارج الريف الشرقي والأوسط أو سجالمة أو تلمسان؟ يمكن أن نقصي الثانية لأن إدريس لم يتوغل في الجنوب نحوها ونشك في الأولى لأننا لا نملك معلومات حول تدخله في الريف، بينما نعرف أنه غزا تلمسان حيث بنو خزرون وبنو يفرن الصفرية وقد نجح في إخضاعهم. لكن الصراع لن ينتهي هنا لأن الصفرية سيستمرون ويثورون جنوب العاصمة فاس في جبل مديونة بزعامة عبد الرزاق الفهري الذي احتل عدوة الأندلس وطرد الإمام على بن عمر بن محمد من المدينة كلها وألجأه إلى أوربة. وهذا الحدث يؤكد أن الأدارسة حاربوا المذاهب الأخرى خاصة الخوارج دون أن يقضوا عليهم، كما حاربوا الوثنيين خاصة برغواطة في تامسنا وسكان الجبال خاصة فازاز.

لقد اختلط في توسع الأدارسة الواجب السياسي بالواجب الديني ونجحوا؛ دون شك، في الدفع بالأسلمة خطوة أخرى إلى الأمام. واقترن ذلك بالتعريب حيث استقرت قبائل وعناصر عربية (ربضية قرطبة- عرب من المشرق- مهاجرو القيروان) بالبلاد فوسعت مجال العربية وخير ما يدل على ذلك نوعية الأسماء المتداولة والتي أصبحت كلها عربية مع أن للإسلام دوره في ذلك.

### 3-2- النشاط الإقتصادي

لا نملك معطيات دقيقة حول هذه النقطة، لكن الأدارسة وفروا بعض عناصر النجاح الاقتصادي من انتشار للأمن وتوفر للنقود (12 دار سكة) وفتح الحدود وانتشار المدن ووجود المرافق من أسواق وفنادق واستقبال لمهاجرين من أبناء المدن (قرطبة والقيروان). ورافق نشاط التجارة قيام نواة للصناعة مما وفر مادة التبادل التجاري. وساعد الأمن على نشاط الفلاحة بدورها.

وبذلك يمكن أن نقول إن شروط نمو اقتصادي توفرت خاصة في القرن 3هـ/9م دون أن نقدر على تحديد ملامحه وحجمه.

### خاتمة

كون الأدارسة إمارة نجحت في اقتطاع الجزء الأكبر من المغرب ونجحت في دعم موقف الإسلام والعروبة وساعدت على نشاط الاقتصاد، لكن أهم ما تحقق هو بداية التوحد والتجانس الحضاري لأجزاء البلاد مما مهد لتوحيده كاملا في القرن الموالي.

## شجرة أمراء الأدارسة

إدريس الأول (172-177هـ) (1)

إدريس الثاني (177-213هـ) (2)

القاسم

محمد (213-221هـ) (3)

عمر (ت220هـ)

إدريس علي (245-267هـ) (7) يحيى (234-245هـ) (5) علي (221-234هـ) (4) محمد يحيى (267-292هـ) (8)

يحيى (292-309هـ) (9) يحيى (245هـ) (6) القاسم جنون (ت337هـ) (11) الحسن (310-313هـ) (10)

الحسن جنون (349-375هـ) (13)

أحمد أبو العيش (337-349هـ) (12)